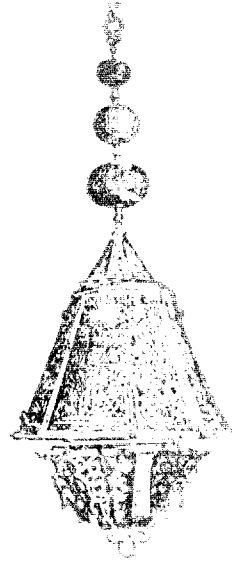


# مَجَلَّةُ الْمَعْهَدِ الْمِصْرِيِّ لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَدْرِيدَ

مدن الأندلس : «غرناطة»



عدد خاص

١٩٩٦ ، الذكرى الأولى لعميد المستعربين الأسبان  
الأستاذ اميليو جارثيا جومث

مدريد ١٩٩٦

المجلد الثامن والعشرون



# مَجَلَّةُ الْمَعْهَدِ الْمِصْرِيِّ لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَدْرِيَدَ

مدن الأندلس : «غرناطة»

يصدرها المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد  
رئيس التحرير : مدير المعهد

مدريد ١٩٩٦

المجلد الثامن والعشرون

Francisco de Asís Méndez Casariego, 1.—28002 Madrid (España)

العنوان :



## فهرس القسم العربى

### صفحة

٥	الدكتور سليمان العطار تقديم .....
<b>الأبحاث والنصوص</b>	
٧	الدكتور سحر السيد عبد العزيز سالم بنو سراج وزراء بنى نصر ، بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية .....
٦١	الأستاذ محمد الجمل منشآت سلاطين بنى نصر ، فى قصور الحمراء .....
٧٨	الأستاذ عبد القادر زمامه متى وأين تصوف لسان الدين ابن الخطيب ؟ .....
٨٣	الدكتور محسن اسماعيل محمد أبو بكر ابن الصيرفى ، الشاعر المؤرخ .....
٩٩	الدكتور سليمان العطار ملخص مداخلات اسبوع ، تكريم جارثيا جومث .....

طبع بمطبعة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية في مدريد  
١٩٩٦

## تقديم

هذا العدد من المجلة عدد خاص من ناحيتين مهمتين يتميز بهما . الناحية الأولى أنه في تصوري بناء على تخطيط مرسوم يعد العدد الأول في مرحلة جديدة تبذل المجلة فيها جهدها لاستكتاب الباحثين والمتخصصين فقد اعتمدت المجلة لفترة طويلة على نشر خلاصة المؤتمرات التي يعقدها المعهد ، ففي نهاية عام ١٩٩١ على سبيل المثال تجمع لدى المعهد في نهاية فترة ادارة أ. د. أحمد مرسى لتحرير المجلة أعمال ثلاثة مؤتمرات كانت مادة للأعداد ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، والتي صدرت في الأعوام التالية . وفي حالات أخرى اعتمدت المجلة على استقبال أعمال كتّاب وباحثين متطوعين . والخطة التي تتبعها المجلة الآن هي محاولة وضع سياسة لفترة طويلة تتخصص فيها أعدادها في موضوع معين . وقد كان الموضوع الأول هو المدن الأندلسية وقد بدأنا بمدينة غرناطة لسببين هو أن غرناطة احتفلت في العام المنصرم بالذكرى المئوية للموسيقى العظيم الغرناطي ( فايا ) كما أنها السنة نفسها التي شهدت تنفيذ وصية المستشرق العظيم جارثيا جومث باختيار غرناطة كمقر أبدي له كآخر تعبير من ألف تعبير عن حبه لغرناطة وعشقه لما تعنيه هذه المدينة . أما الناحية الثانية فهي احتواء هذا العدد المخصص لغرناطة لمداخلات أسبوع التكريم الذي أقامه المعهد احتفالاً بالذكرى السنوية الأولى لجارثيا جومث والتي حلت في ٣١ مايو ١٩٩٦ وهذا الاحتواء أشبه باحتواء غرناطة الآن وإلى الأبد لشخص جارثيا جومث الذي غرب عن الدنيا ليظل مشرقاً في هذه المدينة . وتجدر الإشارة بأن اتجاه المجلة الحالي هو دفع الدراسات الأندلسية نحو الحاضر والمستقبل لكي تكون بذرة في تربة خصبة دائمة الانبات والازهار والاثمار .

وقد طلبت المجلة ممن استكتبتهم ذلك ومع هذا فقد غلب على الكتابات الجانب الكلاسيكي الأندلسي لأنه الاتجاه الدائم للمجلة منذ انشائها والذي لا يتخيل كتاب المجلة خروجها عنه . ومع ذلك فقد ظهرت بعض المقالات وخاصة الأسبانية اللغة الى هذا الافق الجديد . ففي المقال الذي قدمه فرناندو دى أجريدا بوريو يحدثنا في دراسة مقارنة طريفة عن غرناطة في الشعر المراكشي المعاصر كما يحدثنا عبد الله جبيلو عن غرناطة جنة الأدب وفي هذا المقال يحدثنا عن شعائر حج الأدباء وخاصة شعراء الحداثة الى مدينة غرناطة يشدون اليها الرحال من أقصى الدنيا الى أديانها . ويركز على زيارة روبين داريو شاعر الحداثة الأكبر لغرناطة الذي أعجب بطعمها العربي وبما تولده من احساس بالنعوسة الحاملة . أيضا يحدثنا عن علاقة لوركا بغرناطة باعتباره أحد أبنائها المحبين لها . انه مقال جميل يعيش الحاضر الخالد لغرناطة ، وحيث تعطى الحمراء لغرناطة طعما خاصا

فان هذه الأشعار تصنع غرناطة جديدة تغلف بطبقات متزايدة يوما بعد يوم غرناطة القديمة التى ينطبق عليها الآن وصف ابن شهيد لقرطبة « عجوز غانية ».

أما كلارا ماريّا توماس دى أنتونيّو فتحدثنا عن غرناطة فى الأدب العربى المعاصر على مستوى النثر والشعر ، وهذا المقال يفتح أفقا جديدا نحو فهم العقل العربى عندما يتجه الى اسبانيا اليوم محملا بتراث الأندلس الغنائية الحاضرة أبدا كلما ذكرت اسبانيا المعاصرة أو كلما ذكرت علاقات العربى بأوروبا أو ما يحل بالأرض العربية من تآكل وسقوط .

أما مقال كارمن رويث فهو قطعة بديعة من الشعر المنثور الذى يرسم صورة مليئة بقطرات ندى رومانسى يحدثنا عن المستعرب العظيم جارئيا جومث فى رحلة عبر غرناطة الحلم وغرناطة الواقع بوجهيه الحاضرين أبدا فى غرناطة وأنسامها : الماضى العربى - الحاضر الاسبانى الذى يكشف أكثر مما يغطى عن أضواء الماضى حاملا لها نحو المستقبل . ان العجيب فى هذا المقال الشعرى ، انه موثق وأن تضميناته الموثقة لا تخل بشاعريته ، وانما تقرب العلم من الشعر ، كما قرب جومث الشعر من العلم .

أمل أن تكون بداية هذه المرحلة بداية لصدور المجلة كل ستة أشهر ( أول يناير ثم أول يوليو من كل عام ) ، كما أمل أن يصاحب هذه المجلة العتيدة ذات التاريخ الطويل النبيل كل توفيق وازدهار واستمرارية فى رسالتها .

سليمان العطار



# بنو سراج وزراء بنى نصر

## بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية

أولا : بنو سراج في المصادر التاريخية :

( ١ )

بنو سراج ، أصلهم وبداية ظهورهم

يقترن اسم بنى سراج بحوادث مملكة غرناطة في أيامها الأخيرة ، فقد كانوا من أشرف بيوتاتها ، وتولى بعضهم الوزارة لسلطين بنى الأحمر ولعل أبرزهم ، « يوسف بن سراج » الذى تولى الوزارة للسلطان أبى عبد الله محمد بن نصر المعروف بالأيسر (١) . وفى عهد هذا السلطان قام بدور كبير فى توجيه سياسة

---

(١) الأمير محمد الأيسر : هو محمد بن الأمير يوسف الثالث بن الأمير يوسف الثانى . وقد تولى الأيسر حكم مملكة غرناطة عدة مرات ، وتخللت فترة حكمه ثورات وفتن . أما المرة الأولى فتمتد من عام ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) حتى عام ٨٢١ هـ (١٤٢٧ م) عندما ثار عليه محمد الزغير أو الصغير ، فاضطر الأمير الى الفرار الى تونس ، واحتفى بسلطانها الحفصى أبى فارس . وما لبث الأيسر أن استرد ملكه مرة أخرى وتمكن من هزيمة الزغير ، واستعاد عرشه بمؤازرة خوان الثانى ملك قشتالة سنة ٨٢٤ هـ (١٤٣٠ م) . وحكم الأيسر ثانية من آخر عام ٨٢٣ هـ (١٤٢٩ م) الى عام ٨٣٥ هـ . وفى هذه السنة ثار عليه الأمير يوسف بن المول الذى نجح بمعاونة القشتاليين من انتزاع عرش غرناطة فانتحى الأيسر الى مالقة التى ظلت على ولائها له ، ولم يلبث يوسف بن المول أن توفى وعندئذ استعاد الأيسر سلطنة غرناطة مرة ثانية واستمر سلطانا منذ عام ٨٣٦ هـ (١٤٣٢ م) الى عام ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) التى خلع فيها وتولى بعده محمد الأحنف بن نصر بن محمد الخامس . وفى عام ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) عاد محمد الأيسر الى الحكم للمرة الرابعة . (لمزيد من التفاصيل أرجع الى نبذة العصر فى انقضاء دولة بنى نصر لمؤلف مجهول ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الدايدة دمشق ، ١٩٨٤ ، ص ٤٦ حاشية ٦ - محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٥٥ وما يليها - أحمد محمد محمود الطوخى ، مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة ، رسالة دكتوراة ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ١٦ - يوسف شكرى فرحات ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٥٣ ، ٥٤ - وانظر عبد العزيز الأهوانى ، سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى سنة ٨٤٤ هـ ، مجلة كلية الآداب ، المجلد السادس عشر ، الجزء الاول ، مايو ، ١٩٥٤ ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١١٣ وما يليها - وانظر

Luis Seco de Lucena, «Las campañas de Castilla contra Granada en el año 1431», pp. 79-120. )

السلطنة ، فقد كان هذا الوزير النابه ، واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبار رجال دولته ، ومنذ ذلك التاريخ ظهر بنو سراج بغرناطة كـأنداد للسلطين ، والمحركين لخيوط الأحداث على المسرح السياسى . وكان بأيديهم الحل والربط فى جميع مناحى الحياة أدبية ومادية .

وبنو سراج من أعرق الأسرات الأندلسية العربية التى نزلت الأندلس فى تاريخ غير معروف على وجه الدقة ، ولكن اسمهم ورد أول مرة مرتبطا ببجانة ، فقد ذكر الحميرى فى **الروض المعطار** فى سياق وصفه لهذه المدينة أنها « مدينة بالأندلس ، كانت فى قديم الدهر من أشرف قرى أرش اليمن ، وإنما سُمى الاقليم أرش اليمن لأن بنى أمية لما دخلوا الأندلس أنزلوا بنى سراج القضاعيين فى هذا الاقليم وجعلوا اليها حراسة ما يليهم من البحر حفظ الساحل .. » (٢) .

ويذكر المؤرخون أن بنى سراج القضاعيين استمروا يقومون بحماية الساحل فتمتعوا فى مقابل ذلك باستقلال جزئى ، كما أصبح لهم الحق فى استغلال وادى أندرش الذى كان يعرف فى العصر الاسلامى باسم وادى بجانة ، وظلوا على ذلك الحال فأقاموا لهذا الغرض برجاً للحراسة بالقرب من مصب وادى بجانة فوق المرتفع الذى تقوم عليه قسبة المرية فى الوقت الحاضر باعتبار أن هذا المرتفع كان أصلح المواقع لهذا الغرض ، وسموا هذا المحرس باسم « مرية بجانة » ، واتخذها العرب رباطاً وابتنت فيها محارس للرباط (٣) .

ويتضح لنا من ذلك النص أن الحميرى يرجع أصل بنى سراج الى قبيلة قضاة اليمنية ، ويتفق معه فى ذلك المقرئ الذى ذكر نقلاً عن ابن غالب أن بنى سراج كانوا من أعيان أهل قرطبة ، وأرجعهم بدوره الى أصول يمنية ، وإن كان قد نسبهم الى مذبح وطىء (٤) ، بينما يرجعهم ابن بسام فى **الذخيرة** الى كلاب بن ربيعة ، ويذكر أنه أصاب سلفهم سباء قديم صيرهم أولاً فى ولاء بنى أمية بالمشرق فكانوا فى مقدمة الموالى المروانيين وصدرا فى عظمائهم ، ثم اتصلت نباهتهم

(٢) الحميرى ، **الروض المعطار** فى خبر الاقطار ، تحقيق د. احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٧٩ - السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة أسطول الأندلس الاسكندرية** ، ١٩٨٤ ، ص ٢١ - أحمد الطوخى ، **مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة** ، ص ١٦ .

(٣) العذرى ، **ترصيع الأخبار وتنويع الآثار** ، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ٨٦ - السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ مدينة المرية** ، ص ٢٢ -

González Palencia, «Miscelánea de textos», apéndice a la edición Codera de la *Takmila*, Madrid, 1915, p. 432. Ibn al-Tubayr, *Silat as-Sila*, ed. Lévi-Provençal, Rabat, 1938, p. 24.

(٤) المقرئ ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، طبعة القاهرة الأولى ، ج ١ ، ص ١٤٠ ويأخذ بهذا النسب الأستاذ محمد عبد الله عنان فى المرجع السابق ، ص ١٥٥ ، والأستاذ شكيب ارسلان ، أرجع الى شاتوبريان ، آخر بنى سراج ، ترجمة وتعليق الامير شكيب ارسلان ، القاهرة ١٩٢٥ ، ص ٦٦ .

بالأندلس ، كما ذكر أن جدهم الأول الذى ينتمون اليه هو سراج بن قرّة الكلابى صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم أكسبهم شرفاً ومجداً وسؤدداً عبر التاريخ الاسلامى كله (٥) .

ويتفق ابن حزم مع ابن بسام فى هذا النسب فقد أورد ما يشير الى أن سراج ابن قرّة ينتمى الى بنى عبد الله بن كلاب (٦) .

وعلى هذا النحو نجد أنفسنا أمام فريقين يختلفان فى نسب بنى سراج أما الأول فيرجعه الى أصول يمنية اما الى قضاة على حد قول الحميرى أو الى مذبح وطىء كما يذكر المقرئ . وأما الثانى فينسبهم الى بنى كلاب بن ربيعة الذين يرجعون أساساً الى مضر ويدخلهم فى ولاء بنى أمية بالشام وهو ما ذكره كل من ابن حزم وابن بسام .

ونميل الى الأخذ برأى الفريق الثانى الذى يرجع أصل بنى سراج الى كلاب للأسباب التالية :

١ - ان رأى الحميرى الذى ينسب بنى سراج الى أصول يمنية من قضاة لا يستند على أسس قوية لأن نفس نسبة قضاة الى اليمينية مشكوك فيها ، فقضاة هم قضاة ابن عدنان فى قول ، وقضاة بن حمير فى قول آخر (٧) ، وقد أشار ابن حزم الى هذه الحقيقة فى أكثر من موضع من كتابه «جمهرة أنساب العرب» فهو يذكر أن قضاة بن معد بن عدنان أو قضاة بن مالك بن حمير ، وينهى حديثه بعبارة «والله أعلم» (٨) ، وفى موضع آخر يقول ابن حزم «ولد مضر الياس بن مضر ، وقيس عيلان مضر ، أمهما أسماء بنت سود بن أسلم بن الحارث بن قضاة» (٩) .

٢ - يتفق الخبر الذى أورده كل من ابن حزم وابن بسام من أن بنى سراج ينتسبون الى سراج بن قرّة الكلابى صاحب رسول الله (ص) وأنهم دخلوا فى ولاء بنى أمية فأصبحوا من الموالى المروانيين ، مع الأحداث التاريخية والأدلة المنطقية ، فكون بنى سراج قد دخلوا فى ولاء بنى أمية بالشام يفسر قول الحميرى أن الأمويين أنزلوا بنى سراج القضاة على السواحل لحمايتهم ، فالأمويون فى هذه الحالة ، كانوا يثقون فى بنى سراج أولاً لمقدرتهم البحرية بعد دخولهم فى

(٥) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الاول ، المجلد الثانى ، تحقيق د. احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٨٠٨ وما يليها .

(٦) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٨٨ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٤٤٠ .

(٨) نفسه ، ص ٨ .

(٩) نفسه ، ص ١٠ .

ولاء بنى أمية بالشام منذ فترات طويلة ، تمرسوا خلالها على حياة البحر وثانياً لثققتهم في اخلاصهم . وربما اختارهم بنو أمية لحراسة السواحل الاندلسية مع بنى الأسود اليمانيين لايجاد نوع من التوازن القبلى في هذه السواحل .

٣ - من الثابت تاريخياً في المصادر أن بنى سراج سيظهرون في قرطبة زمن الخلافة وسيبرزون هناك في كافة المجالات وخاصة في الحياة الأدبية كما سنوضح على الصفحات التالية . وهذا ما يذكره المقرئ نفسه (١٠) ، ثم نجدهم ينتقلون الى غرناطة بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين (١١) . ونتساءل لما أثر بنو سراج التوطن في غرناطة بالذات بعد رحيلهم من قرطبة ، دون أى مدينة أخرى من مدن الاندلس التى كانت لا تزال في حوزة المسلمين ؟؟ ونستند في الاجابة على هذا التساؤل الى نص أورده المقرئ نطالع فيه « أن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بغرناطة كثير » (١٢) . وهذا الخبر يتفق تماماً مع رأينا في نسبة بنى سراج الى كلاب ، فهم قد اختاروا الموضع الذى كانت تنزل فيه كلاب التى ينتسبون اليها بدافع من الاعتزاز بعصبية الانتماء الى هذه القبيلة . كذلك أورد المقرئ في موضع آخر من كتابه خبراً نقله عن الشقندى مفاده أن غرناطة كان يطلق عليها اسم «دمشق الاندلس» لتشابه طبيعتها الجغرافية مع دمشق ولنزول جند دمشق بها فسموها باسمهم لتشابهها مع بلدهم في القصر والنهر والزهر والغوطة وغزارة الأمطار وكثرة الأشجار (١٣) .

وهذا الخبر يتفق مع ما أورده ابن بسام من نسبة بنى سراج الى كلاب المواليين لبني أمية في الشام فبطبيعة الحال مال بنو سراج الذين كانوا موالاً للأمويين في بلاد الشام الى غرناطة أو دمشق الأندلس .

وعلى هذا الأساس تصبح نسبة بنى سراج الى كلاب بن ربيعة على حد قول ابن بسام ، وابن حزم أكثر قبولا من نسبتهم الى أصول يمنية من مزجج وطىء وهو ما ذكره المقرئ ، ونعتبر في هذه الحالة أن قضاة التى ينسبهم اليها الحميرى عدنانية .

ومن الجدير بالذكر أن رجالاً يتسمون باسم «السراج» أو ينتمون الى أشخاص يحملون الاسم قد جاء ذكرهم في حوادث الاندلس في العصر الأموى ، فابن حيان يورد خبراً يقع في أحداث عام ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) يذكر فيه أنه في عهد الأمير عبد

(١٠) المقرئ ، نفح الطيب ، الطبعة الأولى ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(١١) شكب ارسلان ، آخر بنى سراج ، ص ٦٦ .

(١٢) المقرئ ، نفح الطيب ، الطبعة الأولى ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

(١٣) المصدر السابق ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ، ج ١ ، ص ١٦٤ ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ .

الله ، دخلت جيوشه الأميرية الى جيان وأخذوا منها الثائر المعروف «بالسراج» من أصحاب عمرو بن حفصون وحملوه الى قرطبة حيث صلب (١٤) ، ثم تكرر ذكر ثائر آخر يحمل هذا النسب ثار سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) على الأمير ، هو «أبو علي السراج» المعروف بالزاهد (١٥) ، واستفحل خطره فيما بعد فقد انضم الى ابن القط الثائر القرشى بغرب الاندلس فى سنة ٢٨٨ هـ (٩٠٠ م) . وكان أبو علي السراج الزاهد هو الذى يدعو لابن القط ويحرضه على الثورة ضد الحكومة المركزية بقرطبة (١٦) ، وكان أبو علي السراج يتردد على مناطق الثوار ثم يعود الى قرطبة مرة أخرى (١٧) .

واذا توقفنا قليلا أمام حركة ابن القط القرشى ، نجد أن هذا الثائر هو «أبو القاسم أحمد بن معاوية بن محمد المعروف بالقط الذى يرتفع نسبه الى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وكان من المهتمين بالعلم وخاصة علم الفلك والنجوم ، وقد خرج على الأمير عبد الله داعيا بالمعروف ناهيا عن المنكر ومطالبا بالجهاد فى سبيل الله (١٨) ، ونفسر انضمام «أبى علي السراج» الى حركته يرجع الى رابطة الولاء القديم التى كانت تربط بين بنى السراج أو سراج وبين الأسرة الأموية ، ولعل هذا التحالف بين ابن القط والسراج يساعد على ترجيح نسبة بنى سراج الى كلاب ودخولهم فى ولاء بنى أمية .

ويذكر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام أن الخليفة هشام المؤيد ولى على قضاء الجماعة سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) القاضى «سراج بن عبد الله بن سراج» أحد أفراد هذه الأسرة البارزة (١٩) .

ونستنتج مما ذكره ابن بسام فى الذخيرة أن بنى سراج واصلوا الاحتفاظ زمن الفتنة بمكانتهم السامية ، يقول ابن بسام «بل اقتصروا على مكاسبهم الطيبة ، وترجّح رفيع معاشهم من مباشرة ضياعهم المنتشرة المغلة ، مقتنعين غارب الوقار والتجلة أيام الصلاح وزمان الجماعة ثم استمروا على طريقهم

(١٤) ابن حيان ، المقتبس فى تأريخ رجال الاندلس ، تحقيق أنطونية ، باريس ١٩٣٧ ، ص ١٠٢ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(١٦) نفسه ، ص ١٢٣ .

(١٧) نفسه ، ص ١٣٨ .

(١٨) عن ابن القط وحركته أرجع الى المصدر السابق ، ص ١٢٧ وما يليها ، وعن جمال ابن القط وحسن صورته والأشعار التى قيلت فيه أرجع الى ابن الأبار ، الحلة السيرة ، تحقيق حسين مؤنس ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ - ولمزيد من التفاصيل عن أبى علي السراج أرجع الى Lévi-Provençal, «Histoire de l'Espagne musulmane», t. I, p. 382.

وعن حركة ابن القط أرجع الى سحر السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ السياسى لبطلانوس الإسلامية وغرب الاندلس فى العصر الإسلامى ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، ج ١ ، ص ٢٩٨ وما يليها .

(١٩) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٤٩ .

تلك في مدة الفتنة وأمد المحنة عند تقلص الأموال وذهاب الأحوال وخشوا الاختلال ، لم يفارقوا مع تزلزل الأقدام وتقلب الأيام وذهاب السلطان ، وتضعف الأركان مركزهم من الصيانة ، ولا أخلوا بكريم عاداتهم من التحلي بها والتزين بياهر رونقها ...» (٢٠) . وقد برز عدد من أبناء هذه الأسرة في مجالات السياسة والأدب نذكر من أبرزهم الامام الفقيه «سراج بن عبد الله بن سراج» الذي ظلت رواياته وعلومه تدرس في المغرب والاندلس حتى أن الشيخ القاضي أبا الفضل بن عياض أخذ عنه وعن رواياته . أما ولده الوزير الفقيه «أبو مروان عبد الملك بن سراج» فكان من ألمع وأشهر أفراد هذه الأسرة .

وقد ولد هذا الفقيه في ربيع الأول لاثنتي عشر ليلة خلت منه سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) وتوفي سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م) (٢١) . وقد وصفه ابن بسام بأروع الصفات من ذلك أنه «فد العصر وعلم الفخر ، وبقيت حسنات الدهر ، ونخبة أهل التقدم في شرف النصاب وكرم الأحساب ...» (٢٢) . وقد أحيا أبو مروان عبد الملك بن سراج كثيرا من الدواوين الشهيرة الخطيرة التي أحالتها الرواة الذين لم تكمل لهم الأداة ولا استجمعت لديهم تلك المعارف والآلات ، واستدرك فيها أشياء . مما نسيها مؤلفيها ككتاب «البارع» لأبي علي البغدادي ، وشرح «غريب الحديث» للخطابي وقاسم بن ثابت السرقسطي ، وكتاب «أبيات المعاني» للقتبي ، وكتاب «النبات» لأبي حنيفة ، وكتاب «الأمثال» للأصبهاني وغير ذلك (٢٣) . ووصفه ابن الخطيب في الاحاطة بأنه كان ثقة صدوقا ، وأنه كان من أساتذة الوزير أحمد بن خلف بن عبد الملك الغساني القليعي ، وزير ابن بلقين صاحب غرناطة (٢٤) ، كما درس للفقيه أبي جعفر محمد بن حكم بن محمد بن أحمد بن باقى الجذامي من أهل سرقسطة الذي استوطن غرناطة زمنا ثم تركها الى فاس (٢٥) ، وكان من تلاميذه المقرئ الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن درى الخطيب بجامع غرناطة والمتوفى فيها في رمضان سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) وكان قد أخذ عنه وعن ولده سراج من بعده (٢٦) .

وعندما توفي الوزير «أبو مروان بن سراج» صلى عليه ولده الوزير الفقيه «أبو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج» الذي وصفه ابن بسام بأنه «تاليه في

(٢٠) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨٠٨ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٨٠٨ ، ٨١٢ .

(٢٢) نفسه ، ص ٨٠٨ .

(٢٣) نفسه ، ص ٨١٢ .

(٢٤) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٧٤ ،

ج ١ ، ص ١٤٧ .

(٢٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٢ .

(٢٦) نفسه ، ج ٤ ، ص ١٠١ .

الفضل وكرم الخلال مع سرى الخصال وحائز ميراث مفاخره الجمة .. (٢٧).  
وأثارت وفاة عبد الملك بن سراج الحزن في أوساط العامة والخاصة على  
السواء ، ورثاه عدد كبير من كبار الشعراء في الاندلس أمثال الشيخ الفقيه  
أبو بكر بن حازم ، والوزير الفقيه أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكى بن أبى  
طالب القيسى ، ومما جاء في قصيدة نظمها الأخير في رثائه :

أودى سراج المجد وابن سراج      فلنور شمس المكرمات أقول  
لو كان علم الدين ييكى ميتا      ليكى الحديث عليه والتنزيل  
كم من حديث للنبي أبانه      فبدت له غرر ترى حجول (٢٨)

كما أبنه الوزير الكاتب «أبو محمد عبد المجيد بن عبدون» ، والوزير «أبو بكر  
محمد بن ذى الوزارتين الكاتب أبى مروان بن عبد العزيز» والكاتب «أبو الوليد  
أحمد بن عبد الله بن طريف» ورثاه الأديب «أبو العباس أحمد بن محمد الكنانى»  
أحد تلامذته الآخذين عنه بقصيدة أولها :

رزء تطلبت فيه الصبر فامتنعنا      ورمت دمعى على التسكين فاندفعنا  
وقال فيها :

حديث صدق نعى الناعى الى ضحى      فزعت فيه الى التكذيب حين نعى  
صبرا سراج فما يبقى الردى احدا      كل سيجرعه من كأسه جرعا (٢٩)

أما ابنه سراج فقد ورد اسمه في كثير من المصادر العربية على أنه من بين  
الشيوخ الذين درسوا للقاضى عياض بن موسى بن عياض السبتي (٣٠) . ولكننا  
نلاحظ أن المصادر العربية تختلف في ذكر كنيته فهو في قول ابن الخطيب «أبو  
الحسن سراج بن عبد الملك بن سراج» كما ورد في أكثر من موضع من كتابه  
الاحاطة (٣١) ، بينما كناه كل من ابن خاقان وابن بسام والمقرئ «بأبى  
الحسين» (٣٢) .

(٢٧) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨١٢

(٢٨) المصدر السابق ص ٨١٢ وما يليها .

(٢٩) نفسه .

(٣٠) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ - وارجع كذلك الى المقرئ ، ازهار الرياض في  
أخبار القاضى عياض ، تحقيق سعيد أحمد أعراب ، محمد بن تاويت ، المحمدية ، ١٩٧٨ ، ج ٥ ،  
ص ٨٠ ، حاشية ١٧٣ .

(٣١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٩٦ ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، ج ٣ ،  
ص ٨٩ ، ص ٤٧٧ ، ٢٤٨ ، ج ٤ ، ص ٢٤٤ ، ٢٥٠ .

(٣٢) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس دراسة وتحقيق محمد على  
شوابكة ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ١٩١ ، ٢٨٠ - ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨١٢ ،  
٨٢١ - المقرئ ، ازهار الرياض ، ج ٥ ، ص ٩٩ .

ونميل من جانبنا الى ترجيح كنيته بأبى الحسين لأن ابن خاقان كان صديقا له ولوالده وروى عنه كثيرا من الحكايات . وكان ابن خاقان يلتقى مع والده أبى مروان في منزل الوزير أبى عامر بن شهيد (٣٣) . ويروى ابن خاقان كثيرا من الأخبار عن أبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج فيذكر منها أنه كثيرا ما كان يلقاه مع الوزير ابن شهيد ويقص بعض أخباره فيقول كنا «نحضر مجلس شرايه ولا نغيب عن بابه ، وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ولا يخليه من نثر درره وازهاره ...» وروى عنه حكاية طريفة فقال «فقد منه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لمة من اخوانه وأئمة سلوانه وقد حفوا به ليقطفوا نخب أدبه وهو يخلط لهم الجد بهزل ولا يفرط في انبساط مشتهر ولا انقباض جزل ، واذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواربها من يسترها ويواربها ، وهى ترتاد موضعا لمناجاة ربها وتبتغى منزلا لاستغفار ذنبها وهى متنقبة ، خائفة ممن يرقبها مترقبة وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبى يمرح في كناس ، فلما وقعت عينها على أبى عامر ولت سريعة وتولت مروعة ، خيفة أن يشبب بها أو يشهرها باسمها فلما نظرها قال قولاً فضحها به ، وشهرها» . وقد أورد ابن خاقان بعض أبيات من الشعر في ذلك (٣٤) . وتوفى أبو الحسين (٣٥) سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) وهو في التاسعة والسنتين من العمر .

كذلك يورد ابن خاقان خبراً عن أبى الحسين سراج عند ترجمته للأديب أبى بكر عبد المعطى بن محمد بن المعين ، فيذكر أن أبا الحسين سراج كان يأتى لأبى بكر بكل ما يبغى « خيفة من لسانه ومحافضة على احسانه ، ولما خرج الى اقلش

(٣٣) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ١٩١ - المقرئ ، أزهار الرياض ، ج ٥ ، ص ٩٩ - شكيب ارسلان ، آخر بنى سراج ، ص ٦٦ . وقد قام الاستاذ محمد على شوابكة محقق كتاب مطمح الأنفس بتصحيح كنية سراج بن عبد الملك بن سراج على أنها «أبى الحسن» بدلا من أبى الحسين ، ولكن جانبه الصواب في ذلك .

(٣٤) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ١٩١ وما يليها .

(٣٥) يذكر الاستاذ محمد على شوابكة محقق كتاب مطمح الأنفس أن سراج بن عبد الملك بن سراج ولد سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ، وهو بذلك لم يعاصر ابن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) ويفسر هذه الرواية التى رواها ابن خاقان بأنه ربما قصد بهذه الرواية أباه أبا مروان عبد الملك بن سراج وليس سراج نفسه . أما شارل بيلا جامع ديوان ابن شهيد فيعتقد أن الكاتب (ابن خاقان) أتى بخبر كاذب انتحله انتحالا وافتعله افتعالا . أما الشعر فصحيح النسبة مشهور (مطمح الأنفس، ص ١٩٢ وما يليها) وأعلق بدورى على هذه القصة مفترضة الصدق في ابن خاقان وأفسر ذلك اللبس بأنه ربما كان ابن خاقان وأبى الحسين سراج قد التقيا بالفعل في دار ابن شهيد كما ذكر ، ولكن بعد وفاته كنوع من اللقاء الأدبى في منزلة احياء لذكراه مثلا في جلسة أدبية . وتذكر رشيل أرييه أن أبا الحسين بن سراج كان يعيش في القرن ١٣ م وقد أخطأت بذلك لأنه كان من أمالى القرن ١٢ م فقد توفى في بداية القرن السادس الهجرى في سنة ٥٠٨ هـ الموافقة ١١١٤ م .

Rachel Arié, «Le Royaume, Nasride de Granada réalité de légende», dans Awraq, núm. 4, 1981, p. 156.)



خرج معه وجعل يساير من شيعه فلما حصلوا بفحص سراق وهو موضع توديع  
المفارق للمفارق قرب منه أبو الحسين بن سراج لوداعه وأنشده في تفرق الشمل :

هم رحلوا عنا لأمر لهم عنا      فما أحد منهم على أحد هنا  
وما رحلوا حتى استقادوا نفوسنا      كأنهم كانوا أحق بها منا  
فياساكنى نجد لتبعد داركم      ظننا بكم ظنا فأخلفتم ظنا (٣٦)

ويصفه ابن بسام بأنه اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه فانه سراج علم  
وأدب وبحر علم لغة لسان العرب واليه في وقتنا هذا بحضرة قرطبة سد الاقتاب  
وانضاء الركاب في الاقتباس منه ، ثم انه في هذا الفن الذى نحن في اقامة أوده  
زمانه وخطامه في يده ولنظمه ونثره ديباجة رائعة وهو القائل :

لما تمكن من فؤادى منزلا      وغدا يسلط مقلتيه عليه  
ناديته مسترحما من عبرة      أفضت بأسرار الضمير اليه  
رفقا بمنزلك الذى تحتله      يامن يخرب بيته بيديه « (٣٧)

وممن قرأ على أبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج ، محمد بن ابراهيم بن  
محمد بن ابراهيم البلفيقي ابن الحاج (٣٨) ، وروى عنه الفقيه النحوى الأديب ،  
أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي خيثمة الجبائى بعد أن صاحبه  
صحبة مؤاخاة (٣٩) ، وأبو جعفر أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد (٤٠)  
وأبو القاسم أحمد بن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبد الله بن ورد المعروف بابن  
ورد (٤١) ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن فتوح الخثعمي المقرئ المجود  
المحقق المتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) (٤٢) . وممن روى الحديث عنه  
الفقيه الكبير محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن الجد الفهرى الذى  
وصفه ابن الخطيب بأنه «جليل اشبيلية وزعيم وقته زمن الموحدين» (٤٣) .

ويورد المقرئ نماذج من أشعار أحد بنى سراج النابهين وهو الشاعر «أبو عبد  
الله بن السراج» الذى كانت بينه وبين الشاعر أبي الحسن بن الغليظ المالقي  
اجازة ، وفي ذلك يقول المقرئ «قال أبو الحسن بن الغليظ المالقي ، قلت يوما

(٣٦) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(٣٧) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨٢١ .

(٣٨) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ .

(٣٩) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .

(٤٠) نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، ص ٢٠١ .

(٤١) نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٤٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧٧ .

للأديب أبي عبد الله بن السراج المالقي (٤٤) ، ونحن على خير ماء أجز : شربنا على خير ماء كأن خيريه فقال مبادرا : بكاء محب بان عنه حبيب ...» (٤٥) . كما كتب أبو علي الحسن بن الغليظ الى صاحبه أبي عبد الله بن السراج وقد قدم من سفر :

يامن أقلب طرفي في محاسنه      فلا ارى مثله في الناس انسانا  
لو كنت تعلم ما لقيت بعدك ما      شربت كأسا ولا استحسنت ريحانا

فورد عليه من حينه وقال :

أردت مجاوبتك فخفت أن أبطيء وصنعت الجواب في الطريق (٤٦) .

وفي القرن الثامن الهجري برز من بنى سراج الشيخ الفقيه «أبو زكرياء يحيى ابن السراج» الذي كتب فهرست تضمنت تراجم أهم علماء عصره ، ومن بينهم القاضي علي بن محمد بن عبد الله النباهي المالقي ، وقد وصف ابن سراج ، النباهي في فهرسته بأنه «الشيخ الفقيه ، الراوية ، قاضي الجماعة بالأندلس وخطيبها» (٤٧) ، كما ذكر أساتذته ومن أخذ عنهم وأنه قدم رسولا لفاس عامي ٧٦٧ - ٧٨٨ هـ / ١٣٦٥ - ١٣٨٦ م .

وقد كتب الامام يحيى بن السراج ، نسخة من كتاب «الشفاء» بخطه وتلقى علومه على الشيخ العارف محمد بن عباد (٤٨) . ووصلنا من أنباء هذه الأسرة اسم طبيب شهير هو الطبيب «عبد الله بن سراج» من أعلام القرن الثامن الهجري وقد تتلمذ على يديه أبو عبد الله محمد بن علي بن فرج القربلياني المعروف بالشفرة (٤٩) .

وفي القرن التاسع الهجري برز الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن يحيى السراج ، حفيد الفقيه أبي زكرياء يحيى بن سراج . ومن أبرز ما رواه أبو عبد الله محمد بن سراج ، حديثا للرسول (ص) بشأن مدينة سبتة رواه عن ابن عمر

(٤٣) نفسه ، ج ٣ ص ٨٩ . وكان مولد ابن الجد الفهري سنة ٤٩٦ هـ ووفاته بأشبيلية في شوال سنة ٥٨٦ هـ .

(٤٤) مما يؤكد أن أبا عبد الله بن السراج هذا كان يعيش في مدينة مالقة .

(٤٥) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٥٢ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٣٦٨ .

(٤٧) المقرئ ، أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٦ .

(٤٨) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

(٤٩) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٧٩ . وتسميه راشيل آرييه ، بأبي عبد الله محمد

ابن ابراهيم بن السراج وتذكر أنه عاش في بداية القرن ١٤ م .

Rachel Arié, «Le Royaume», p. 156.

ومفاده «مدينة بالمغرب ، سمعت رسول الله (ص) يقول انها على مجمع بحرى المغرب ، وهى مدينة بناها سبت بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام ، واشتق لها اسما من اسمه ، فهى سبتة ، ودعا لها بالبركة والنصر فلا يريد أحد بها سوء الا رد الله دائرة السوء عليه» (٥٠) .

وممن برز من بنى سراج فى هذا القرن الفقيه «أبو القاسم بن سراج الغرناطى» ويذكر المقرئ أن أبا عبد الله بن مرزوق المعروف بالحفيد ، الذى أدرك القلصادى فى رحلته ، كتب عدة تأليف من بينها كتابه «المعراج الى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج» فى كراسة ونصف ، أجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطى على مسائل نحوية ومنطقية (٥١) .

وما دمنّا قد تقصينا أصل بنى سراج ، وأبرز من تسمى أو ينسب باسمهم ، فعلينا أن نتوقف قليلا لمعرفة حقيقة نسبهم ، هل ينتسبون الى السراج بفتح السين وتشديد الراء أم الى السراج بكسر السين وفتح الراء أم الى سراج بتشديد الراء أو سراج بفتح الراء .

والواقع أن المصادر العربية استخدمت هذه الصور الأربعة للاسم فالمقرئ مثلاً يذكر أبو الحسين سراج بن عبد الملك فى **أزهار الرياض** على أنه «ابن سراج» (٥٢) دون اضافة (أل) تعريف أو تشديد الراء ولكنه فى مواضع أخرى من كتابه يذكر اسم أبى زكرياء يحيى أحد أفراد هذه الأسرة على أنه «ابن السراج» (٥٣) ، كما ذكر منهم الشاعر «أبا عبد الله بن السراج» (٥٤) بالتشديد واطافة أل التعريف ، فى حين أنه ذكر «أبا القاسم بن سراج» دون التعريف أو تشديد الراء (٥٥) .

ويذكر ابن الخطيب اسم أبى مروان عبد الملك بن سراج فى أكثر من موضع من **الاحاطة** دون حرفى الألف واللام للتعريف ، ودون تشديد الراء (٥٦) ، ولكنه عندما يتحدث عن ولده أبى الحسين يذكره فى بعض الأحيان على أنه «سراج بن سراج» (٥٧) وفى أحيان أخرى على أنه «ابن السراج» (٥٨) . وكان ابن حيان كما سبق أن ذكرنا قد أورد أسماء الثوار من هذه الأسرة ، على الأمير عبد الله على

- 
- (٥٠) المقرئ ، **أزهار الرياض** ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .  
 (٥١) المقرئ ، **نفح الطيب** ، ج ٧ ، ص ٣٤٨ - شكيب أرسلان ، آخر بنى سراج ، ص ٦٨ .  
 (٥٢) المقرئ ، **أزهار الرياض** ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .  
 (٥٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .  
 (٥٤) المقرئ ، **نفح الطيب** ، ج ٤ ، ص ٢٥٢ .  
 (٥٥) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٤٨ .  
 (٥٦) ابن الخطيب ، **الاحاطة** ، ج ١ ، ص ١٤٧ ، ج ٣ ، ص ٧٢ ، ج ٤ ، ص ١٠١ .  
 (٥٧) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، ١٧٠ ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .  
 (٥٨) نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧٧ ، ص ٨٩ .

أنهم من بنى «السراج» بإضافة أداة التعريف مع التشديد على حرف الراء (٥٩).  
أما ابن بسام وابن خاقان فيذكران الاسم مجردا من «ال» للتعريف ومن  
الشدة فوق الراء (٦٠) .

هذا وقد عثر على شاهدى قبر لفارسين من بنى سراج سنتحدث عنهما  
بالتفصيل في الصفحات التالية ، نقش عليهما اسم السراج بتشديد الراء مع  
إضافة التعريف (٦١) . كما أن المصادر الإسبانية تذكر الاسم على أنه  
«Abencerraje» كترجمة للاسم العربى «سراج» بتشديد الراء وذلك وفقاً  
لما ورد في قصة ابن سراج التى دونت في غرناطة بعد سقوطها في أيدي الملكين  
الكاثوليكين بسبعين عاماً ، وكما ورد في كتاب Ginez Perez de Hita  
الموسوم بـ *Guerras Civiles de Granada* . ويذكر كل من لويس سيكو دى  
لوثينا و راشيل آرييه بنى سراج مضافا اليه حرفى «ا» و «ل» للتعريف مع  
ازدواج حرف «R» ، وفسرا المعنى بأنهم أبناء صانعى السروج (٦٢) ومنه  
اشتق الاسم الاسبانى Abencerrajes .

ونميل من جانبنا الى الأخذ بالصورة التى أوردها كل من ابن بسام وابن  
خاقان للاسم وهو «بنو سراج» دون التعريف والتشديد ، إذ أخذنا في الاعتبار  
أن ابن خاقان كان معاصرا لاثنتين من أبناء هذه الأسرة كما سبق أن ذكرنا ، هما  
أبو مروان عبد الملك ابن سراج ، وابنه سراج بن عبد الملك فهما أقرب الى هذه  
الأسرة من أى مصدر آخر .

ونضيف الى ذلك أن الجد الاول لهذه الأسرة هو «سراج بن قسرة» ، وعلى هذا  
الأساس يصبح اسم الأسرة المرجح في تصورنا هو «بنو سراج» وليس «السراج»  
وربما يكون حرفا «ال» للتعريف والتشديد على الراء قد أضيفا تسهيلا على عامة  
الناس في النطق .

## ( ٢ )

### بنو سراج وزراء سلاطين غرناطة

مرت مملكة غرناطة الاسلامية في الفترة ما بين عامى ٧٦٠ - ٧٦٣ هـ  
(١٣٥٩ - ١٣٦٢ م) بأزمات سياسية واقتصادية عنيفة جعلتها عرضة لانقلابات

(٥٩) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق أنطونية ، ص ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٠٢ .

(٦٠) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨٢١ - ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ١٩١

(٦١) Emilio García Gómez, «Sobre los epitafios de dos caballeros abencerrajes», *Al-Andalus*, 1942, Madrid, pp. 284-289.

(٦٢) (Rachel Arié, «Le Royaume», p. 156)

متعددة ، ومن أشهر هذه الانقلابات ثلاثة متتالية راح ضحيتها عدد من الملوك والقادة والأمراء . وقد حدث الانقلاب الاول في ٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ (٢١ أغسطس ١٣٥٩ م) وانتهى بخلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله (أبى عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر) ونفيه الى المغرب ، وتولية أخيه أبى الوليد اسماعيل الثانى . أما الانقلاب الثانى فقد وقع في ٨ شعبان سنة ٧٦١ هـ (٢٤ يونيو ١٣٦٠ م) وانتهى بمقتل السلطان أبى الوليد اسماعيل الثانى ، واعتلاء قاتله الرئيس أبى عبد الله محمد الغالب بالله عرش السلطنة (٦٣) . أما الانقلاب الثالث فينتهى بعودة السلطان المخلوع محمد الخامس الغنى بالله بعد مقتل السلطان الغالب بالله المغتصب ، وذلك في جمادى الاولى سنة ٧٦٣ هـ (١٦ مارس ١٣٦٢ م) .

وقد رفضت كبار الشخصيات الغرناطية التعاون مع السلطان المغتصب أبى عبد الله محمد ، الغالب بالله ، ففرت اعداد كبيرة من تلك الشخصيات البارزة من غرناطة هربا من بطشه نذكر منهم الأمير أبا الوليد اسماعيل بن نصر عم السلطان محمد الخامس وصهره ، الذى فر الى بلاد المغرب ، والشيخ المغربى يحيى بن عمر ابن رحو بن عبد الحق شيخ الغزاة المغاربة بغرناطة الذى فر الى البلاط المرينى بفاس . كذلك يشير ابن الخطيب الى فرار زعيم غرناطى شهير يدعى «إبراهيم السراج» الى بلاط ملك قشتالة (٦٤) . ويعلق الدكتور أحمد مختار العبادى على ذلك بأنه لا يعرف عن هذا الزعيم شيئا ، ويفترض أن يكون من أسرة بنى سراج Abencerrajes المعروفة فى الأندلس (٦٥) . ونلاحظ أن اسم بنى سراج سيرتبط بدءاً من هذا التاريخ ارتباطاً وثيقاً بحوادث مملكة غرناطة خاصة بعد وفاة السلطان محمد الخامس عام ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) عندما تعاقب على عرش غرناطة عدد من السلاطين الضعاف ، فقاست المملكة كثيراً من جراء الدسائس والفتن والمؤامرات حول العرش (٦٦) . وفى عام ٨٢٠ هـ ( ١٤١٧ م ) توفى السلطان يوسف الثالث بعد حكم دام نحو تسعة أعوام فتوالى على عرش غرناطة بعده عدد

---

(٦٣) أحمد مختار العبادى ، فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، ١٩٦٥ ، مدريد ، ص ٦٣ - أما الرئيس أبو عبد الله محمد السادس الغالب بالله فهو أحد أبناء عمومة محمد الخامس وزوج شقيقته ، وتسميه المصادر الاسبانية بابى سعيد البرميخو Bermejo أى صاحب اللون البرتقالى الضارب للحمرة نسبة للون شعره ولحيته . (ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٣٠٨) .

(٦٤) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ، تحقيق د. أحمد مختار العبادى ، طبعة القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨ ، ١١٨ .

(٦٥) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفترة المضطربة ارجع الى أحمد مختار العبادى ، فترة مضطربة ، ص ٥٠ ، ٥١ .

(٦٦) أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة ، ص ١٦ .

من السلاطين الضعاف أولهم ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالأيسر ، الذى كان صارما قاسيا بعيدا عن الاهتمام برعيته ومصالحهم (٦٧) . وعندئذ بدأ نجم بنى سراج السياسى يتألق على المسرح السياسى فى غرناطة ، فالسلطان الأيسر قد اتخذ من بين أبناء هذه الأسرة وزيرا له هو « يوسف بن سراج » . وكان بنو سراج قد ساعدوا الأيسر منذ البداية فى الظفر بالسلطنة (٦٨) .

وقام يوسف بن سراج بدور كبير وهام فقد كان يعتبر الوسيط الوحيد بين السلطان الأيسر وشعبه وكبار رجال دولته ، فكان يعمل ببراعة تامة ورقة على تلطيف حدة السخط العام على سلطانه الأيسر .

ولهذا السبب يبدأ دور بنى سراج منذ أن اعتلى الأيسر دست السلطنة فى الظهور والتقدم على القادة والزعماء الذين يحركون الأحداث السياسية بأعظم نصيب . ورغم محاولات الوزير الشهير «يوسف بن سراج» المتواصلة لتهدئة الأمور إلا أنها لم تثمر فى تخفيف سخط الأهالى على الأيسر بل على الضد من ذلك فقد أحتدمت نيران الثورة عليه ولم يلبث أن خلع من السلطنة ثم استرجعها أكثر من مرة . من ذلك ما حدث سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) عندما انتهز أهالى غرناطة فرصة غزو القشتاليين لبسائط وادى آش ، فقاموا بثورة عارمة انتهت بخلع الأيسر ومبايعة الأمير محمد بن محمد بن يوسف الثالث الملقب بالزغير (٦٩) مما اضطر الأيسر الى الرحيل مع أهله الى تونس فنزل ضيفا على السلطان أبى فارس الحفصى (٧٠) . وفشل الأمير محمد الزغير فى القضاء على الدسائس والفتن المستمرة رغم فروسيته وقدراته العالية ، وكان السبب وراء فشله هذا يرجع الى «بنى سراج» ألد خصومه وأكثر الموالين من بيوتات غرناطة للسلطان المخلوع ، الأيسر ، لذلك قام الزغير بمطاردة هذه الأسرة العريقة وعمل على سحقهم واستئصال نفوذهم القوى المستشرى فى جميع أنحاء المملكة مما دفع الوزير يوسف بن سراج الى مغادرة غرناطة مع عدد كبير من أفراد أسرته هربا من بطش «الزغير» . رحل بنو سراج بادىء ذى بدء الى ولاية مرسية ومن هناك انتقلوا الى اشبيلية وكان

(٦٧) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٥٤ - يوسف شكرى فرحات ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، ص ٥٣ .

(٦٨) أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة ، ص ١٦ .

(٦٩) هى كلمة عامية أصلها الصغير ، وهو ابن أخى الأيسر فى رواية وولده فى رواية ثانية وأحد أبناء عمه فى رواية ثالثة (لزيد من التفاصيل أرجع الى عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٥٥ ، يوسف شكرى فرحات ، ص ٥٣) .

(٧٠) Luis Seco de Lucena Paredeo, «Más rectificaciones a la historia de los últimos nasries, un sultán llamado "el Chiquito"», *Al-Andalus*, vol. XXIV, Madrid, 1959, p. 284. José Francisco de Luque, «Historia de Granada y sus contornos», Granada, 1858, p. 125.

يتقدمهم يوسف بن سراج الذى لاذ بحماية خوان الثانى ملك قشتالة . وانتبهز خوان الثانى هذه الصراعات ليتدخل فى شئون السلطنة ، ويحرز مكاسب جديدة ، فأبدى ترحيبه ببنى سراج وأكرم وفادتهم ، واتفق مع يوسف بن سراج على العمل لرد السلطان الأيسر الى عرشه . وبالفعل استدعى بنو سراج ، الأيسر من تونس فاستجاب لدعوتهم ، وعاد الى الاندلس مزودا بفرقة من الفرسان الحفصيين ، وتوجه الى المريسة ومنها تمكن بمساعدة بنو سراج من استعادة عرشه ، وقبض على الزغير وتخلص منه (٧١) .

وهكذا سيطر الأيسر على غرناطة من جديد سنة ٨٣٣ هـ (١٤٣٠ م) واهتم باعادة تنظيم مملكته . وكانت أولى الخطوات التى اتخذها من أجل ذلك ، اعادة «يوسف بن سراج» الى الوزارة ، ويلى ذلك تجديد الهدنة مع قشتالة ، ولكن الملك القشتالى اشترط على الأيسر دفع اتاوة باهظة ، والاعتراف بطاعة قشتالة فرفض الأيسر تلك الشروط المجحفة مما أدى الى هجوم القشتاليين على الثغور الغرناطية فى غارات مدمرة مما أوقع البلاد فى محنة جديدة ، وأفسح المجال لانقسام المملكة الى شيع وأحزاب متنافسة ووجد النصارى فى ذلك فرصة مواتية لانكفاء نيران الفتن وبسط سلطانهم على مملكة غرناطة . وكان خصوم الأيسر قد التفتوا حول أمير ينتمى الى بيت الملك عن طريق أمه هو الأمير أبو الحجاج يوسف بن المول الذى تسميه المصادر الاسبانية Abenalmao (٧٢) . وكان ابن المول يتمتع بتأييد الملك القشتالى خوان الثانى لأنه تعهد أن يحكم غرناطة باسمه وأن يدخل فى

---

(٧١) يذكر المؤرخ الاسباني خوسيه فرنسيسكو دى لوكي José Francisco de Luque تفاصيل هذه الأحداث فى كتابه «Historia de Granada y sus contornos» فيقول أن يوسف ابن سراج خرج مع أربعين من رجاله الى لورقة فاستقبله بعض أصحابه واستضافوه ، ثم انتقل الى مرسية ، ومن هناك توجه للقاء الملك القشتالى وتوسل اليه أن يساعده فى اعادة الأيسر الى السلطنة ويذكر de Luque أن يوسف بن سراج ذهب بنفسه الى تونس حاملا رسائل من الملك القشتالى الى الأيسر ، وهناك استقبله سلطانها الحفصى بكل ترحاب ووافق على عودة الأيسر الى بلاده (لمزيد من التفاصيل ارجع الى José Francisco de Luque, op., cit., p. 125) أما واشنطن إيرفينج فقد أورد فى كتابه عن قصر الحمراء ما يشير الى أن الملك خوان الثانى ملك قشتالة أرسل رسولا من قبله ليرافق يوسف بن سراج ، ول يحمل رسالة الملك القشتالى بنفسه الى سلطان تونس يدعوه الى ارسال الأيسر للاندلس مرة أخرى (واشنطن إيرفينج ، قصر الحمراء فى الأدب والتاريخ . ترجمة اسماعيل العربى ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ١٤٧ - وارجع كذلك الى Rachel Arié, «Le Royaume», p. 156

وتذكر الروايات أن الأيسر قد قبض على الزغير عند دخوله غرناطة وقطع رأسه ، وفى رواية أخرى أنه اعتقله مع أخيه أبى الحسن على بن يوسف فى قلعة شلوبانية . (محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٥٦ وارجع الى بحث

«Luis Seco de Lucena, «Las campañas de Castilla contra Granada en el año 1431»

المنشور فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمديريد ، المجلد الرابع ، ص ٨٠) . (٧٢) أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة ، ص ١٧ ، ١٨ .

طاعته كما تعهد بحضور مجلس الكورتس (الأعيان) معترفا بولائه لملك قشتالة ، وأن يحارب معه ضد أعدائه وأن يؤدي له اتاوة سنوية لو ساعده في الارتقاء الى دست السلطنة ، وعلى أساس تلك الشروط عقدت معاهدة بين الجانبين (٧٣) . ولم يتردد يوسف بن المول في السير الى غرناطة تسانده قوات قشتالة وتمكن من الاستيلاء على عدة قواعد دانت له بالطاعة ومنها رنذة ولوشه وحصن اللوز وغيرها ، وأعلن خوان الثانى انحيازه الى يوسف ونودى به ملكا ، وتوجه ابن المول الى غرناطة نفسها فتصدى له جنود الأيسر بقيادة وزيره «يوسف بن سراج» الذى انهزم في تلك المعركة ولقى مصرعه ، وعلى أثر ذلك دخلت قوات ابن المول غرناطة ، فهرب الأيسر مع أسرته الى مالقة التى ظلت موالية له ، في حين تربع ابن المول على عرش السلطنة في سنة ٨٣٦ هـ (١٤٣٢ م) وبعد أقل من سنة توفي ابن المول فاتفقت الأحزاب في غرناطة على رد السلطان الأيسر مرة أخرى (٧٤) .

وفور عودة السلطان الأيسر الى عرش غرناطة للمرة الثالثة بادر بعقد معاهدة صلح مع ملك قشتالة فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة عام ، ورغم ذلك أغار القشتاليون على أراضي غرناطة الشرقية فردهم المسلمون بقيادة ابن عبد البر زعيم بنى سراج والوزير الجديد للأيسر الذى خلف يوسف بن سراج ثم أوقعوا بهم هزيمة ثانية عند مدينة أرشذونة وقتلوا وأسروا منهم عددا كبيرا (٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م) (٧٥) .

وفي العام التالى سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين في أحواز غرناطة ووادي آش وانتصر عليهم أكثر من مرة ، ولكن القشتاليين عاودوا الاغارة على بعض الحصون المجاورة وزحفت قوة كبيرة منهم بقيادة حاكم لبلة على ثغر جبل طارق ، ولكن أهالى الثغر تصدوا لهم ، فجدد القشتاليون غاراتهم على مقربة من كازورلا والتقى المسلمون بقيادة ابن الوزير (ابن عبد البر) مع القشتاليين في معركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين . ورغم انتصار المسلمين في موقعة كازورلا

(٧٣) محمد عبد الله عنان ، وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجرى ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، مدريد ، العددان ١-٢ ، ١٩٥٤ ، ص ٣٨ ، ٤٥ - أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة ، ص ١٧ وما يليها - يوسف شكرى فرحات ، غرناطة ، ص ٥٤ - Luis Suárez Fernández, «Juan II y la frontera de Granada», Valladolid, 1954, páginas 39-42.

(٧٤) يوسف شكرى فرحات ، غرناطة ، ص ٥٥ .

(٧٥) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦١ .



الا أن قسائدهم ابن سراج سقط شهيدا في هذه المعركة فحزنت غرناطة لفقدته ، لحسن بلائه ولما اتصف به من فروسية وشجاعة (٧٦) .

وعلى الرغم من تصدى الأيسر للقشتاليين وانتصاره عليهم عدة مرات الا أنه لم يسلم من مؤامرات خصومه له ، وكان فريق من خصومه من السادة الفرسان يلودون بحماية ملك قشتالة وعلى رأسهم الأمير يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثاني وابن عم الأيسر وهو المعروف في المصادر القشتالية بابن اسماعيل ، في حين ناصر فريق آخر من زعماء المريسة الأمير محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله المعروف بالأحنف . ونجح الأحنف في دخول غرناطة في سنة ٨٤٥ - ٨٤٦ هـ (١٤٤١ - ١٤٤٢ م) ونادى بنفسه ملكا (٧٧) .

ولكن بنو سراج وعلى رأسهم الوزير ابن عبد البر ، لم يكفوا عن معارضة الأحنف ، وكان ابن عبد البر بن سراج يقيم في ذلك الوقت في حصن مونتى فريو الواقع شمال غربى غرناطة ، وكان يؤيد الأمير يوسف (ابن اسماعيل) المقيم في بلاط قشتالة .

وتعتبر هذه الفترة من تاريخ غرناطة أكثر الفترات غموضا واضطرابا وتعقيدا فقد اختلف في سرد تفاصيلها كل من تصدى للكتابة عنها وأهمهم الأستاذ محمد عبد الله عنان والأستاذ الدكتور أحمد الطوخي ، والأستاذ يوسف شكرى فرحات ، ولا يهمنا من كل ذلك سوى تتبع دور بنو سراج ، فهذا كله يخرج عن دائرة موضوعنا .

ويتفق المؤرخون على أن الصراع الذى دار بين « ابن اسماعيل » (٧٨)

(٧٦) عن La Fuente Alcántara ارجع الى محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ١٦١ ، ويذكر الأستاذ اسماعيل العربى مترجم كتاب واشنطن ايرفينج أن الوزير الجديد للأيسر من بنو سراج هو «عبد البر بن سراج» وأنه ابن الوزير السابق يوسف بن سراج ، وأنه أبلى بلاء حسنا في المعارك التى خاضها الأيسر مع القشتاليين عقب مهاجمة هؤلاء لأراضى غرناطة الشرقية وقد هزمهم جيشه بقيادة عبد البر ، ثم هزمهم عند مدينة أرشذونة وقتل وأسر منهم عددا كبيرا (٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م) . وفى السنة التالية سار الأيسر لقتال النصارى عند وادى آش وهزمهم في عدة معارك . وفى سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٦ م) نشبت معركة بين المسلمين والقشتاليين على مقربة من كازورلا أصيب فيها الطرفان بخسائر جسيمة وانتهت بانتصار المسلمين ، وهنا يذكر الأستاذ اسماعيل العربى أن المسلمين رغم انتصارهم فقدوا وزيرهم عبد البر ورجع الى La Fuente Alcántara ، ولكن بالرجوع الى الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه نهاية الاندلس ، نجده يستقى معلوماته من نفس المصدر الاسباني لافونتي القنطرة ، فيذكر أن الذى توفى هو ابن الوزير «ابن عبد البر» وليس هو شخصيا بدليل أنه سيظهر في الأحداث التاريخية فيما بعد هذه المعركة (ارجع الى كتاب قصر الحمراء في الأدب والتاريخ ، ص ١٥١ حاشية (١) ، والى محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦٣) .

(٧٧) تدل على ذلك وثيقة عربية تتمثل في خطاب موجه منه الى ملك قشتالة في ذى القعدة سنة ٨٤٦ هـ (مارس ١٤٤٣ م) يشير فيه الى بعض المشاكل القائمة بين البلدين وقد نشر هذا الخطاب مع صورته الفوتوغرافية في كتاب نبذة العصر ، المنشور بعناية معهد فرانكو بتطوان ، ص ٧٦ - ٧٨ .

(٧٨) يذكر واشنطن ايرفينج أن خلافا نشب بين الأيسر وبين بنو سراج ، فتخلوا عن مساندته واعتبروه غير صالح للحكم ، ولجأوا الى مونت فريو ، ومن هناك بدأ بنو سراج يساندون =

و «الأحنف» اللذين تبادلوا الجلوس على عرش غرناطة عدة مرات قد انهمك قوى الأهالي وأضعف من قوة المسلمين في الاندلس ، وانتهى ذلك الصراع بتولى السلطان سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثاني خلفا للسلطان الأحنف الذى استمر فى الحكم حتى سنة ٨٦٣ هـ (١٤٥٨ م) فى قول (٧٩) فى حين يرى فريق آخر من المؤرخين أن الأمير سعد هو ابن اسماعيل ، ابن شقيق السلطان الأيسر وأنه تولى عرش غرناطة بعد الأحنف مباشرة (٨٠) .

ويتولى السلطان سعد عرش غرناطة ازدادات الاضطرابات فى البلاد لأنه حاول أن يتخلص من «بنى سراج» الذين كانوا يناصبونه العداء ، فعمد الى قتل بعض زعمائهم ومن بينهم وزيره مفرج (سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م) فهرب ولداه محمد وعلى من بنى سراج الى مالقة وبايعا أميرها يوسف النصرى الذى أعلن استقلاله فى مالقة ، وزحف الى غرناطة (٨١) ، ثم مات يوسف النصرى سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٤ م) فتنفس سعد لوفاته الصعداء ولكن الى حين ، ذلك أن بنى سراج اتصلوا بابنه أبى الحسن وحرصوه على الثورة على أبيه . ونحن نستقى هذه

---

= «ابن اسماعيل» . وكاتب ابن عبد البر ، ابن اسماعيل الذى كان فى ذلك الوقت ملتجئاً عند ملك قشتالة يدعوه للالتحاق بمعسكره ويعرض عليه مساندته ولم يتردد ابن اسماعيل فى الاستجابة السريعة ، فرحل من قشتالة ووصل الى مونت فريو حيث بايعه ابن عبد البر بن سراج ، وأنصاره وكان معظمهم من بنى سراج ملكا على غرناطة . كما أشار ايرفينج الى صراع شديد دار بين بنى سراج وأسرة بنى بنيغش Los Venegas وهى أسرة نصرانية الأصل دخلت الاسلام ، وعاد بعض أفرادها الى النصرانية عقب سقوط غرناطة . ومن أشهرهم الوزير «أبو القاسم بن رضوان بينيغش الذى كان أبوه على خلاف مع الوزير ابن عبد البر بن سراج ، أما أبو القاسم فقد تنصر هو ومعظم أفراد أسرته عند دخول الاسبان غرناطة ، وقد اشتهرت هذه الأسرة فى تاريخ اسبانيا الحديث وأنجبت عددا من القادة والأخبار (ايرفينج قصر الحمراء ، ص ١٥٠ وما يليها - نبذة العصر ، ص ٤٦ حاشية (١) - عنان ، ص ١٩٥) .

(٧٩) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦٤ -

Luis Seco de Lucena, «Rectificación a la historia de los últimos nasries», **Al-Andalus**, vol. XVII, fasc. 1.

(٨٠) يوسف شكرى فرحات ، غرناطة ، ص ٥٥ . فى حين يذكر أ. د. أحمد الطوخى أنه فى بداية عام ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) عاد الأيسر الى الحكم خلفا للسلطان الأحنف للمرة الرابعة ، كذلك يذكر أن اضطراب الأوضاع الداخلية فى غرناطة بلغ درجة كبيرة الى حد أنه قد تعاقب على عرشها خلال القرن التاسع الهجرى (١٥ م) اثنتى عشر سلطانا كان بعضهم يتولى العرش أكثر من مرة (أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة ص ١٨) أما أ. د. محمد عبده حاتملى فيذكر أن السلطان محمد الأيسر تولى الحكم فى غرناطة فى فترة مختلفة حددها بالفترة ما بين عامى ٨٢٢ - ٨٣١ هـ (١٤١٩ - ١٤٢٧ م) والفترة من عام ٨٣٣ - ٨٣٥ هـ (١٤٢٩ - ١٤٣١ م) والفترة من عام ٨٣٥ - ٨٤٨ هـ (١٤٣١ - ١٤٤٤ م) كما يذكر أنه خلفه على العرش السلطان سعد بن على الذى تشير اليه المراجع الاسبانية بـ *giriza* وأحيانا أخرى بلقب «ابن اسماعيل» والمراد به هو الملك اسماعيل الاول ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر (ارجع الى محمد عبده حاتملى ، محنة مسلمى الاندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٩) .

(٨١) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 158.

الاخبار من رواية المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل الحنفى الذى زار المغرب والاندلس فى هذه الفترة المضطربة ، وقد دون لنا كل مشاهداته فى مؤلفه المسمى «كتاب الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم» (٨٢) ، ويذكر عبد الباسط بن خليل أن سلطان الاندلس فى سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ - ١٤٦٣ م) ، كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر ، وأنه ما كاد يجلس على العرش حتى ثار عليه ولده أبو الحسن بتحريض بنى سراج ، وأخرجه عن غرناطة وامتلكها ، فسار سعد الى مالقة وحكم أبو الحسن مكانه . ولما اشتد ضغط النصارى على الاندلس ، عاد أبو الحسن فعقد الصلح مع أبيه وأطلق سراحه ، واختار سعد الإقامة فى المرية فلم يعترض ولده ، ولم يلبث أن توفى الأب فى أواخر هذا العام وعندئذ خلس العرش لأبى الحسن (٨٣) .

عانت مملكة غرناطة الى جانب الصراع الدموى العنيف بين أفراد البيت النصرى من أجل الوصول الى العرش والحفاظ عليه ، صراعاً آخر اضطرهم واشتعل بسبب التنافس بين الأسرات النبيلة القوية ، وعلى رأسها «بنى سراج» وبنى الثغرى Tigris وبنى أضحى (٨٤) للظفر بالوزارة .

(٨٢) توجد نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بمكتبة الفاتيكان الرسولية برقمى ٧٢٨ ، ٧٢٩ فى مجلدين . وقد نقل العلامة المستشرق O. Della Vida ما ورد فى كتاب هذا الرحالة المصرى من أخبار الاندلس ، ونشره مجتمعاً فى مقال عنوانه

«Il Regno de Granata nel 1463-66 nei ricordi di un viaggiatiero egiziano, **Al-Andalus**, vol. I, 1933, fasc. II.

(٨٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦٧ . ويذكر الاستاذ يوسف شكرى فرحات أن السلطان سعد توفى فى سجنه سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٤ م) . (ارجع الى غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، ص ٥٦) . أما ١. د. محمد عبده حتاملة فقد أورد فى كتابه «محنة مسلمى الاندلس» رواية المؤرخ الرحالة المصرى عبد الباسط بن خليل كما أورد رواية أخرى هى ما وردت لدى Hernando de Baeza المؤرخ الاسبانى المعاصر للأحداث . ويذكر د. حتاملة أن الرواية الاسبانية تذهب الى أن أبا الحسن المعروف لديهم باسم مولائى الحسن Muley Hacén أقدم على خلع أبيه سعد عن عرش غرناطة فى سنة ٨٦٦ هـ (١٤٦١ م) ليحل محله ، وأنه نفى والده الى شلوبيانية Salobreña حيث توفى بعد قليل فنقل جثمانه الى غرناطة ودفن فى المقبرة الملكية (محمد عبده حتاملة المرجع السابق ، ص ٧) .

(٨٤) يرى الأستاذ محمد عبد الله عنان أن آل الثغرى كانوا من البربر من قبيلة غمارة (عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦٦) كما نقل لنا رأى المستشرق الاسبانى جاينجوس الذى يرى فى ترجمته لنفخ الطيب أن الثغريين هم الذين نزحوا من أراجون أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) الى غرناطة بعد سقوطها فى أيدي الاسبان . أما الأمير شكيب أرسلان فيعتقد أن الاسم «الثغرى» ما هو الا تحريف من بنى الزغبى نسبة الى قبيلة زغبة . أما بنو «أضحى» أو ضحى فهم من سادة غرناطة ، وكانوا قد لعبوا دوراً هاماً فى التاريخ الاندلسى ومن أشهرهم «أبو الحسن على بن عمر بن أضحى» أحد ثوار الاندلس البارزين فى أواخر العصر المرابطى وكان قد ثار بغرناطة فى سنة ٥٣٩ هـ ولكنه لم يستطع الصمود ضدهم فاعتصم بالقصبة وتوفى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) . وكان الشاعر محمد بن عيسى بن عبد الملك الزهرى قد امتدحه عندما دخل غرناطة (ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، ٥٠٤) وكذلك الشاعر أبو بكر المخزومى الاعمى المورورى (المدورى) الذى التقاه بغرناطة عندما كان ابن أضحى يتولى قضاءها (المصدر السابق ج ١ ، ص ٤٢٧) . أما الفقيه عبد الرحمن بن =

وكان عهد أبي الحسن علي بن سعد مثلاً حياً للفوضى الضاربة أطنابها في أنحاء سلطنة غرناطة ، التي نتجت عن الصراعات التي نشبت بين أفراد الأسرة الحاكمة .

فأبو الحسن بن سعد نجح في الظفر بعرش غرناطة بعد صراع مرير ضد والده السلطان سعد بن الأحمر كما سبق أن ذكرنا ، ورغم انتهاء هذه المعركة لصالحه إلا أن الصراعات ظلت متواصلة لم تتوقف ، ذلك أنه كان لأبي الحسن أخوان ينافسانه على السلطنة هما أبو عبد الله محمد المدعو بالزغل El Zagal أي الشجاع ، وأبو الحجاج يوسف الذي توفي في سنة ٨٧١ - ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) بسبب الطاعون وأدى تطلع الزغل إلى السلطنة إلى نشوب صراع دموي عنيف بين أبي الحسن وبين أخيه الزغل . ولم يكن ذلك الصراع بين الأخوين هو الصراع السياسي الوحيد للظفر بدست السلطنة ، فقد امتد الصراع واتسع نطاقه في البيت الحاكم بحيث أدرك أبناء السلطان أبي الحسن . وقصة هذا الصراع الأخير تتلخص في أن أبا الحسن علي كان قد تزوج من ابنة عمه الأميرة عائشة ابنة السلطان محمد الأيسر (٨٥) . وقد أثمر هذا الزواج عن ثلاثة أبناء هم علي التوالي ، أبو عبد الله محمد الذي حرقت المصادر الإسبانية كنيته فجعلتها Boabdil وأبو الحجاج يوسف ، وعائشة . واتفق أن أغار المسلمون في إحدى معاركهم ضد الأسبان على أرض قريبة من قرطبة وعادوا مثقلين بالغنائم والسبي ، وكان بين السبي فتاة بارعة الجمال بيعت في غرناطة بيع الرقيق ،

---

= عبد الله الخثعمي فقد امتدحه عندما دخل غرناطة ووصفه ابن الخطيب عند دخول هذا الفقيه إلى غرناطة بأنه كان قاضياً ورئيساً (نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٧٩) . كما عرف أبو الحسن بن أضحي بتفوقه في مجال الفقه ، ومن تلاميذه الذين أخذوا عنه الفقيه محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي زمنين المري (نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٢) . وربما انتسبوا إلى محمد بن أضحي بن عبد النطيف الهمداني زعيم العصبية العربية في غرناطة بعد مصرع سعيد بن سليمان بن جودي في ذي القعدة سنة ٢٨٤ هـ (ابن حيان ، تحقيق انطونية ، ص ٦١) .

(٨٥) نبذة العصر ، ص ٤٦ . أما الأميرة عائشة زوجة السلطان أبي الحسن علي ، فقد تشكك المستشرق الإسباني لويس سيكو دي لوثينا Luis Seco de Lucena في بحثه القيم «La sultana madre de Boabdil» الذي نشره في مجلة Al-Andalus, vol. XII, 1947 من ص ٣٥٩ - ٣٩٠ في حقيقة اسمها وافترض أنها فاطمة بنت محمد الأحنف مستنداً في ذلك إلى رسوم بيع وشراء ملكية نشر نصوصها بالمجلة المذكورة . وقد وافقته على هذا الرأي المؤرخة راشيل آرييه التي استخدمت اسم «فاطمة» عند حديثها عن أم السلطان أبي عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة ، وذلك في بحثها عن بنى سراج بين الواقع التاريخي والأسطورة الشعبية ، ارجع إلى Rachel Arié, «Le Royaume», p. 158 ولكن الاستاذين محمد عبد الله عنان والدكتور محمد عبده حتاملة رفضا هذا الاحتمال بعد أن ناقشاها ومالا إلى ترجيح أن اسمها هو الاسم المعروف والشهير «عائشة» (لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ارجع إلى محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٩٧ - محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمي الاندلس ، ص ٨) ولعل بقاء الاسم في الوقت الحاضر على منظره بقصر قمارش وهي منظره در عايشة Daraja ينهض دليلاً على ذلك .

هذه الفتاة هي ايزابيل دى سوليس Isabel de Solís ، كانت ابنة القائد الفارس دون سانشو خيمينث دى سوليس Don Sancho Ximenez de Solís الذى لقي مصرعه فى احدى المعارك التى خاضها ضد المسلمين (٨٦) ، وألحقت ايزابيل وصيفة بقصر الحمراء واعتنقت الاسلام وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح . ولم تلبث أن وقعت موقعا حسنا عند السلطان أبى الحسن على فتسرى بها وتزوجها وأثرها على زوجته عائشة التى تلقت منذ ذلك الحين «بالحرة» تمييزا لها عن ثريا الاسبانية ، وقد أثمر هذا الزواج الأخير عن ثلاثة أبناء أكبرهم كان يسمى سعد والثانى نصر أما الثالث فقد توفى فى أحد الأوبئة (٨٧) .

ويعلق المؤرخ المجهول صاحب نبذة العصر على تلك الأحداث بقوله «فمن جملة انهماكه أنه اصطفى على زوجته رومية اسمها ثريا وهجر ابنة عمه وأولادها منه ، فأدرك ابنة عمه من الغيرة ما يدرك النساء على أزواجهم ووقع بينهما نزاع كثير وقام الأولاد محمد ويوسف مع أمهما وغلظت العداوة بينهما ...» (٨٨) .

ومن هذا النص يتضح لنا أن حربا خفية غير معلنة بدأت تشتعل بين الزوجتين الحرة ، وأم الولد ثريا ، وأصبحت كل منهما تنافس الأخرى من أجل اسناد ولاية العهد الى ولدها دون الأخرى ، وأدى ذلك الى اضطراب الأوضاع فى قصر الحمراء ، وهز كيان البيت الحاكم وعجل بانحلال مملكة غرناطة ومهد لسقوطها . وقد نجحت ثريا الاسبانية فى السيطرة على زوجها السلطان أبى الحسن تماما فأقنعتة باقصاء السيدة عائشة الحرة ولديها عن كل عطف ورعاية ، ونجحت فى اقناع زوجها باعتقال زوجته الأولى فزج بها مع ولديها فى برج قمارش أمنع أبراج قصر الحمراء ، وعاملهم جميعا بمنتهى القسوة والعنف.

(٨٦) يرى البعض أن والدها كان يشغل منصب قائد صخرة مرتش Alcaide de la Peña وعن تفاصيل المعارك بين المسلمين والقشتاليين فى ذلك الوقت ارجع الى J. Condé, «Historia de la dominación de los árabes en España», t. III, Madrid, 1821, pp. 240-246.

(٨٧) نبذة العصر ، ص ٤٩ - محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمى الاندلس ، ص ١٤ ، وقد أشارت راشيل أرييه اشارة بسيطة الى أن سعداً ونصراً ولدى أبى الحسن على من ثريا قد بقيا فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة وارتدا الى المسيحية وعرفا بدون فرناندو ، ودون خوان أميرى غرناطة ( Rachel Arié, «Le Royaume», p. 158 ) فى حين أن د. محمد عبده حتاملة أفرد لهما جزءاً من كتابه «محنة مسلمى الاندلس» للحديث عن مصيرهما وأهم المناطق التى أنعم الملك الكاثوليكيان بها عليهما وأهم عقاراتهما كما تحدث عن السيدات الاسبانيات اللاتى تزوج منهن كل من سعد ونصر وأنسابهن (لزيد من التفاصيل ، ارجع الى محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمى الاندلس ، ص ٧٧ - ٩٠) وقد اعتمد فى دراسته القيمة على وثائق ومصادر اسبانية معاصرة لتلك الأحداث .

(٨٨) نبذة العصر ، ص ٤٩ ، وارجع كذلك الى Julio Caro Baroja, «Los moriscos del reino de Granada», Madrid, 1991, p. 39

وقد أثار تصرف السلطان أبي الحسن هذا غضب البيوتات الاندلسية الكبيرة التي كانت تؤثر السلطانة الشرعية ولديها بالعطف والتأييد . وتصف المصادر العربية «السيدة عائشة الحرة» بأنها شجاعة وصلبة كالرجال ، فلم تستسلم الى مصيرها التعس بل عملت على الاتصال بأنصارها وعلى رأسهم «بنى سراج» أقوى أسر غرناطة لتخليصها من الأسر ، ودبروا لها وسيلة للفرار من القصر ، وتشير المصادر العربية الى نجاح الأميرين في الفرار من القصر دون أهمها الى وداى آش ، في حين تؤكد الرواية القشتالية فرارهم جميعا بمساعدة بنى سراج (٨٩) .

ولم يغفر السلطان أبو الحسن هذا الموقف لبنى سراج أبدا ، وكان ذلك الموقف المساند لولديه من السيدة عائشة الحرة ، الدافع الأساسى وراء نكبة رؤساء هذه الأسرة الذين انتهى أمرهم بالقتل في أحد قاعات قصر الحمراء . وكانت هذه النكبة من البشاعة والقسوة بحيث أصبحت مجالا خصبا لروايات وأقاصيص شعبية سنتحدث عنها في الصفحات التالية .

بدأ بنو سراج ، ومنذ فرار الأميرين من قصر الحمراء ، يتخذون موقفا جديدا في سياسة غرناطة ، يتمثل في تأييد الأمير أبي عبد الله محمد المعروف في المصادر الاسبانية باسم Muley Baudili أو Beaudili - Baudili أو Boabdil ضد والده السلطان أبي الحسن على .

ولسنا هنا في مجال شرح تفاصيل الصراع الذى نشب بين أبي الحسن على ، وأخيه الزغل ، ولا تفاصيل الصراع بينه وبين ولده أبي عبد الله محمد ، وما يهمنا توضيحه هو أنه في هذا الوقت الذى كان أفراد البيت الحاكم في غرناطة يتقاتلون ويتناحرون كانت ايزابيلا ملكة قشتالة قد تزوجت من فرديناند الرابع ملك أراجون فتوحدت اسبانيا المسيحية (٩٠) ، وازدادت قوتها وبدأت تخطط

(٨٩) نبذة العصر ، ص ٦٠ - محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٢٠١ - أحمد مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية في حوض البحر المتوسط ، ج ٢ ، الاسكندرية بدون تاريخ ، ص ٣٦٦ .

(٩٠) فرديناند الكاثوليكي أو فرناندو الرابع ، هو ابن خوان الاول ملك نبرة . الذى عرف فيما بعد بالملك خوان الثانى ملك أرغون . وقد ولد فرديناند سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) من زوجة خوان الثانية ، خوانا انريكيث ابنة أمير بحر قشتالة . تولى فرديناند عرش مملكة أرغون منذ عام ٨٤٤ - ٩٢٢ هـ (١٤٧٩ - ١٥١٦ م) كما اعتلى عرش مملكة نابلى منذ عام ٩١٠ - ٩٢٢ هـ (١٥٠٤ - ١٥١٦ م) وصقلية ٨٧٣ - ٩٢٢ هـ (١٤٦٨ - ١٥١٦ م) وقشتالة من ٨٧٩ - ٩١٠ هـ (١٤٧٤ - ١٥٠٤ م) ، ثم تزوج من زوجته ايزابيلا الاولى ملكة قشتالة سنة ٨٧٩ هـ (١٤٧٤ م) . وقاد الحرب ضد المسلمين في مملكة غرناطة حتى سقوطها سنة ١٤٩٢ م . وعند وفاة زوجته ايزابيلا الكاثوليكية عام ١٥٠٦ م تزوج من الفرنسية خيرمانا دى فوا ولزيد من التفاصيل عن حياته وأعماله ارجع الى (محمد عبده حتاملة ، التنصير القسرى لمسلمى الاندلس في عهد الملكين الكاثوليكين ، عمان ، ١٩٨٠ ، ص ١٤ - Luis Suárez Fernández, «Historia de España», Madrid, 1970, capt. XLVIII, pá-

لتصفية الاسلام نهائيا من الاندلس . أما حكام غرناطة فبدلا من أن يتداركوا الموقف الخطير ، ويلو ذوا بالوحدة فقد اقبلوا على التحالف مع ملوك المسيحية الواحد ضد الآخر .

وتمكن الأمير أبو عبد الله محمد من مولاي أبي الحسن فانترزع عرش غرناطة سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) بمساعدة بنو سراج (٩١) ، ولأن أبوه أبو الحسن على أخيه الزغل بمالقة الذي كان قد عقد هدنة معه بعد صراع طويل. وحدث أن انهزم الأمير أبو عبد الله محمد أمام الجيوش القشتالية في ظاهر قلعة اللسانة Lucena سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) ووقع أسيرا في يد الاسبان ، ولكن الملكين الكاثوليكين وافقا على اطلاق سراحه بشرط أن يبذل لهما الطاعة ويدفع جزية سنوية ويتعهد بالافراج عن أربعمائة من الرهائن النصراني في غرناطة . وكانت هذه المعاهدة بمثابة حجر الأساس في القضاء على مملكة غرناطة ، وزاد من تعقيد الأمور ، احتدام الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة ، فقد تولى الزغل حكم غرناطة خلال فترة أسر ابن أخيه أبي عبد الله محمد ، واشتد الصراع بينه وبين الأمير يوسف أبي الحجاج بن أبي الحسن شقيق أبي عبد الله محمد ، فلما أطلق الملكان الكاثوليكيان سراج أبي عبد الله ، تجدد الصراع بينه وبين عمه الزغل ، وكان ربض البيازين في الشمال الشرقي من غرناطة مسرحا لهذا الصراع ، واستغل العدو هذه الفرصة ، وازداد تكالبه على التهام ما بقي من دولة الاسلام في الاندلس (٩٢) . فتساقطت في يده معاقل غرناطة الواحد بعد الآخر بدءاً بالحامة سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) وحصنا قرطبة وذكوين وعدة حصون أخرى في الشمال الغربي من مالقة سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ، وتمكن

= ginas 681-682.

أما ايزابيل فقد ولدت في مدريدال دى التاس تورس عام ١٤٥١ م. وكانت ابنة خوان الثانى ملك قشتالة ، وأُمها هى ايزابيلا البرتغالية ، ابنة حفيد خوان ملك البرتغال . تزوجت من فرديناند أمير أرغون وصقلية سنة ١٤٦٩ م . وعرفا عندئذ بأمير قشتالة . وعندما توفي شقيقها الملك انريكي الرابع عام ١٤٧٤ م ، عرفت هى وزوجها بملكى قشتالة وأرغون (لمزيد من التفاصيل أرجع الى محمد عبيد حاتملة ، التنصير القسرى ، ص ١٦ -

T. de Azcona, «Isabel la Católica», Madrid, 1964.

Rachel Arié, «Le Royaume», p. 158. (٩١)

(٩٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث الأخيرة في عهد مملكة بنو الأحمر ، والحروب الأهلية التى تخللتها أرجع الى المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٥٨ وما يليها - نبذة العصر ، ص ١٥ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٩٤ - ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ - وقد اتهم مؤلف نبذة العصر الزغل وشك في ولائه للاسلام (ص ٢٣) لكن الاستاذ محمد عبد الله عنان دافع عنه مشيرا الى أنه لم يكن باستطاعته أن يضع حداً لأسباب ضعف السنين التى سبقته (نهاية الاندلس ، ص ٢٨٨) كما دافع عن أبي عبد الله الصغير ووصف بطولاته الأخيرة (ص ٢٨٤ وما يليها) .

العدو من عزل مدينة رندة التي لم تلبث أن سقطت بدورها في جمادى الأولى من نفس العام ٨٩٠ هـ ، وبسقوطها انهارت المقاومة في المنطقة الغربية من مملكة غرناطة ففي سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) استولى العدو على لوشة كما انتهز فرناندو الرابع احتدام الصراع بين الزغل وابن أخيه أبى عبد الله سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٦/ ١٤٨٧ م) فهاجم مدينة بلش مالقة Velez Malaga واستولى عليها . ولما كان المكان الكاثوليكيان قد عقدا معاهدة مع أبى عبد الله محمد ، تكفل بمقتضاها لهما ببذل الطاعة والتبعية فقد أثرا عندئذ مهاجمة القواعد الشرقية والجنوبية التي كان يحكمها الزغل الذى كان مسيطرا على وادى آش واعمالها ، ولم تلبث المدن الخاضعة له أن تساقطت في أيدي العدو الواحدة بعد الأخرى الى أن سقطت وادى آش آخر معاقله في أوائل صفر سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) بعد أن أدرك الزغل عدم جدوى المقاومة (٩٣) . وهكذا لم يتبق أمام الملكين الكاثوليكين سوى غرناطة ، الصفحة الأخيرة التي كان عليهما أن يطويها طى الكتاب ليختتما بذلك ثمانية قرون استغرقتها حركة الاسترداد المسيحي التي بدأت منذ الفتح الاسلامي للأندلس . وفي سنة ٨٩٥ هـ أرسل الملك الكاثوليكيان الى السلطان أبى عبد الله محمد يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء وقصور صاحبت مقر السلطان والحكم ، وسمحوا له بأن يقيم في غرناطة تحت طاعتها وحمايتها . وأبدى السلطان الغرناطى رفضه لهذا الطلب واضطر الى القتال ، ولكن انتصاراته الهزيلة في أندرش وشلوبانية لم تفت في عضد الملكين الكاثوليكين اللذين حطا بقواتهما بكل عدتها وعديدها على مدينة غرناطة ، واضطر سلطان غرناطة في نهاية الأمر الى التسليم بعد أن عقد مع الملكين الكاثوليكين معاهدة أقسما باحترامها دون أى تغيير في بنودها ، ولكنهما لم يحترما هذا القسم كما أثبتت الأيام وأكد التاريخ (٩٤) .

(٩٣) عن هذه الأحداث الاخيرة لغرناطة قبيل السقوط ارجع الى عنان ، ص ١٨٨ ، ٢٧١ - فون شاك ، الفن العربى في اسبانيا وصقلية ، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٠ وما يليها - يوسف شكرى فرحات ، غرناطة ، ص ٥٦ وما يليها - عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية الاسلامية في الاندلس بعد سقوط غرناطة ، بغداد ، ١٩٨٠ ص ٨ - ٩ - Julio Caro Baroja, «Los moriscos», pp. 40-41.

(٩٤) عن معاهدة التسليم وأهم بنودها ارجع الى نبذة العصر ، ص ١٢٠ وما يليها - محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٢٤٥ وما يليها - محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمى الاندلس، ص ٥٣ - ٥٦ - عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٥ . وعن سقوط غرناطة ودخول الملكين الكاثوليكين فيها ارجع الى Joseph Lozana, «Els moriscos: un mon a descobrir», collection Awraq, núm. 1 Madrid, 1993, p. 88.

وعن عدم وفاء الملكين الكاثوليكين بالتزاماتهما وعهودهما ونقضهما لمعاهدة التسليم ارجع الى نور الدين الصغير ، مأساة غرناطة وأثرها في الوعي التاريخى العربى والاسلامى ، من أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية ، زغوان ، ١٩٩٣ ، ص ١٤١ ، عادل سعيد بشتاوى ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .



وقبل أن نختتم هذه الفترة التاريخية نود أن نشير إلى فارسين من أشهر قادة فرسان بنى سراج ، بخلاف يوسف بن سراج وابن عبد البر بن سراج . هذان الفارسان تعرفنا عليهما من خلال النقوش المحفورة على شاهدى قبريهما .

أما النقش الأول فهو محفور على شاهد قبر للفارس «أبى اسحق ابن الشيخ الوزير الجليل المعظم أبى عبد الله بن السراج» المتوفى في ١٣ محرم سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) ، وكان قائدا من أفضل القواد بمدينة رندة .

ويذكر اميليو غرثية جومث أن هذا الشاهد ، عثر عليه ليفى بروفنسال ، وكان لا يعدو مجموعة من القطع الرخامية المفتتة ، لم تتح لليفى بروفنسال أن يتمكن من قراءة النقش الجنائزى لتناثر القطع ، ثم آلت هذه القطع إلى دون بيدرو دى ألبا فأرسلها بدوره إلى أحد قادة الجيش بالجزائر الذى أعطاها لسكريته العربى فقرأها له ونص النقش المحفور على الشاهد كما يلي :

(بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله . هذا قبر الشيخ القائد الوزير الجليل ، المجاهد ، الأمضى ، الأسعد ، الأصعد ، الأحفل ، الأفضل ، الأكمل ، المعظم ، الموقر ، ذى الهمم الأيية والنشيم الزكية المرتقى بمكارمه وحسن مذهبته إلى الرتب السنية ، المقدسى المرحوم أبى اسحق بن الشيخ الوزير ، الجليل ، المعظم ، الماجد ، الحسيب ، الأصيل ، الأحفل الأفضل ، المبرور ، المرحوم أبى عبد الله بن السراج (قدس الله روحه وبرد ضريحه) . كان رحمه الله صدرا من صدور القواد ، مستعدا للجهاد بارتباط الجياد . لم يزل على ذلك إلى أن قبضه الله إليه ، واختار له ما لديه بمدينة رندة (حرسها الله) قائدا على قصبته مئاغرا لحوزتها بتاريخ الثالث عشر لمحرم ، من عام ستة وستين وسبعماية . ونقل إلى الحضرة العلية غرناطة ، يحرسها الله تعالى منشأ قراره وأصل داره فدفن بهذه الجبانة من خارجها (تلقاه الله بالتحية والرضوان وجدد عليه الرحمة بتجدد الأحيان ، وكل من عليها فان فسبحان وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم تسليما كثيرا) (٩٥).

ونستنتج من هذا النقش بعض الحقائق ، منها أن بنى سراج لم يتولوا الوزارة للملك بنى الأحمر بداية من عهد الأيسر فحسب ، بل أن منهم من كان يتولى منصب الوزارة قبل عهد الأيسر ، فمن هذا النقش نكتشف وجود وزيرين أولهما الأب أبى عبد الله بن السراج ، وثانيهما الابن أبى اسحق بن أبى عبد الله بن السراج ، وإذا

كان الابن أبو اسحق قد توفي سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) فنفترض أنه تولى الوزارة في عهد السلطان أبو عبد الله محمد بن أبي الوليد اسماعيل الذي تولى (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ) أو أخوه السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد اسماعيل (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) أو السلطان محمد الخامس (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ) أو اسماعيل الثاني سنة ٧٦٠ هـ أو في الامارة الثانية لمحمد الخامس (٧٦٢ - ٧٩٤ هـ) .

أما والده الوزير أبو عبد الله بن السراج فنرجح أنه كان وزيرا لأحد سلاطين بني الأحمر في الفترة من ٦٥٠ - ٧٠٠ هـ ، ونرجح أن يكون ذلك في عهد محمد الفقيه الثاني (٦٧٢ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠١ م) وان لم تكن المصادر قد أوردت أى إشارة لبنى سراج كوزراء في هذه الفترة .

أما النقش الثانى الذى درسه ليفى بروفنسال في مجموعته تحت رقم ١٨٠ فيتعلق بقائد من بنى سراج هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن السراج المتوفى في سقطة لجواد في ٢ شوال سنة ٨٠٦ هـ (١٤ أبريل ١٤٠٤ م) . وقد ظهر هذا النقش في مجموعة دون ماريانو ألونسو في غرناطة ، وبفضل وثيقة محفوظة في مكتبة فرانثيسكو كوديرة التى تحتويها اليوم مكتبة ميغيل آسين استطاع اميليو غرثية جومث اعطاه مقاسات شاهد هذا القبر (٩٦) .

( ٣ )

### بنو سراج بعد سقوط غرناطة

بعد رحيل السلطان أبي عبد الله محمد من غرناطة الى بلاد المغرب ، رحل معه عدد كبير من المسلمين في حين أثر السواد الأعظم عدم مبارحة غرناطة مصدقين الوعود الزائفة التى سجلها الملك الكاثوليكيان في بنود المعاهدة التى وقعها مع السلطان المخلوع أبي عبد الله واثقين بأنهما لن ينكثا بقسمهما وتعهدهما بتنفيذه ، الا أن التعصب الأعمى والكراهية الشديدة للإسلام دفعتهما الى النكث بعهودهما والعمل على القضاء على الاسلام في اسبانيا قضاء مبرما وفى سبيل تحقيق ذلك الهدف اصطنع الاسبان سياسة التنكيل بالعناصر المسلمة واضطهادها ودفعها الى التنصر (٩٧) ، بحيث عرفوا بالموريسكيين أو متنصرة المسلمين .

116

(٩٦) عن شاهد القبر الثانى ارجع الى

Emilio García Gómez, «Epitafios», p. 289. Rachel Arié, «Le Royaume», p. 156.

(٩٧) المقرئ ، أزهار الرياض ، ج ١ ، ص ٦٧ ، ٦٨ - نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ وما يليها نبذة العصر ، ص ١٢٨ - عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية ، ص ١٣ - ١٨ .

وما دمننا بصدد الحديث عن فترة ما بعد سقوط غرناطة ، فمن الواضح أن تاريخ المورييسكيين فى اسبانيا قد مر بثلاثة مراحل أساسية :

١ - **مرحلة الملكين الكاثوليكين** ، وهى التى حاول الأندلسيون خلالها مواجهة الاضطهاد الذى تعرضوا له وتمسكوا بتنفيذ معاهدة التسليم التى تحفظ لهم حقوقهم ، وكان معظم الاضطهاد موجها اليهم من قبل رئيس الكنيسة الاسبانية الكاردينال خيمينث دى سيسنيروس Francisco Jimenez De Cisneros الذى أرغم أكثر من خمسين ألفا من المسلمين على التنصر سنة ٩٠٤ - ٩٠٥ هـ (١٤٩٩ م) كما أمر بالقبض على كبار فقهاء المسلمين والزج بهم فى غياهب السجون . وفى سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩ م) أصدر أمره بأن يسلم المورييسكيون كل ما لديهم من مخطوطات عربية ومصاحف واحرقها فى ساحة المدينة العامة عند باب الرملة ، ويقدر بعض المؤرخين هذه المؤلفات التى أحرقت بثمانين ألفا فى حين يبالغ البعض فى عددها فيقدرونها بمليون وخمسة آلاف كتاب ، كما أجبر الرجال من سكان ربض البيازين الذى تحول مسجدهم الجامع الى كنيسة سان سلفادور على الزواج من مسيحيات كما أجبرت الفتيات المسلمات على الزواج من اسبان مسيحيين بهدف القضاء النهائى على الاسلام ، وكانت هذه الاجراءات السبب الرئيسى وراء انتفاضة أهالى البيازين سنة ٩٠٥ هـ ( ١٤٩٩ م ) ثم ثورة سكان البشرات Alpujarras الأولى سنة ٩٠٦ هـ ( ١٥٠٠ / ١٥٠١ م ) وقد انتهت كلتا الثورتين بالفشل أمام سياسة القمع والارهاب التى اتبعها الاسبان (٩٨) .

ب - **مرحلة الملكين شارل الخامس وفيليب الثانى** وتتميز باستمرار اصدار القرارات التى تستهدف ادماج المورييسكيين فى المجتمع الاسبانى عن طريق ارغامهم على التنصر بكل الوسائل الوحشية .

(٩٨) عن هذه الأحداث ارجع الى محمد عبده حتاملة ، التنصير القسرى ، ص ٦٢ وما يليها - عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة ، ص ١٧ - ١٨ - على مظهر ، محاكم التفتيش ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٧٥ وما يليها - جمال عبد الكريم ، المورييسكيين : تاريخهم وأديهم ، مجلة المؤرخ المصرى ، جامعة القاهرة ، العددان ٥ ، ٦ يناير ويوليو ١٩٩٠ ، ص ١٤ وما يليها - عادل بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، ص ١٠٨ ، وما يليها - محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين ١٦ ، ١٧ م ، الدار البيضاء ، ١٩٨٩ ، ص ٥٣ - وارجع الى بحثى علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها ، من أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات المورييسكية ، زغوان ، ١٩٩٣ ، ص ١١٣ وما يليها . وارجع كذلك الى بلقاسم درارجه ، الاندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، بحث من أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات المورييسكية الاندلسية ج ٢ ، زغوان ، ١٩٩٣ ، ص ٧٣ وما يليها . ويذكر لوى كاردياك أن المسيحيين بعد فشل ثورة البشرات كانوا يعيشون تحت خوف تجدد الثورة المورييسكية وقد تناقل الناس أنهم لا ينتظرون لهذا الأمر الا وقته المناسب وأنهم ساعون لجمع الأسلحة (لوى كاردياك ، المورييسكيون الاندلسيون والمسيحيون ، المجابهة الجدلية ١٤٩٢ - ١٦٤٠ م ، زغوان ، ١٩٨٩ ، ص ٢٩) .

ج - **مرحلة الملك فيليب الثالث** وهى المرحلة الأخيرة من تاريخ الموريسكيين التى انتهت باصدار قرار الطرد النهائى لباقي الموريسكيين من الأندلس (٩٩) . وفى هذه المراحل الثلاثة قامت البقية الباقية من بنى سراج فى الأندلس ممن أثروا البقاء فى بلدهم ولم ينزحوا فى جملة من نزح منهم الى تونس أو المغرب بدور كبير ، لا سيما فى المرحلة الثانية التى تواكب عصر الملك فيليب الثانى ( ١٥٢٧ - ١٥٩٨ م) وهو العصر الذى تجدد فيه سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م) القانون القديم الصادر فى عهد الامبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٣ هـ ( ١٥٢٦ م ) ضد الموريسكيين ويقضى بتحريم اللغة والثياب الاسلامية ، وكان ذلك القانون بمثابة الضربة الأخيرة التى وجهت للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية ، اذ كان يعطى للموريسكيين الفرصة لتعلم اللغة القشتالية خلال ثلاث سنوات ، لا يسمح بعدها لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يخاطب أحدا باللغة العربية ، كما منع هذا القانون النساء الموريسكيات من التحجب ، وأرغمهن على ارتداء المعاطف والقبعات كما حرم انشاد الأغاني القومية أو اقامة حفلات الزمر ( الرقص العربى ) أو الطرب بآلات عربية أو استخدام العادات والتقاليد الموريسكية وتحريم الخضاب بالحناء واستخدام الحمامات للاستحمام واستعمال الأسماء والألقاب العربية (١٠٠) . وللأسف لم تسعفنا المصادر العربية المعاصرة لتلك الأحداث بأى تفاصيل عن ذلك ، وكل ما وصلنا عن هذه الاجراءات القهرية يعتمد على ما زودتنا به الروايات الاسبانية المسيحية التى أوردت ما يشير الى أنه بخلاف موريسكى بلنسية الذين كان يتزعمهم كوزمى بن عامر المقرب من البلاط ، لم يتمكن أحد من الموريسكيين من الافلات من تنفيذ هذا القانون (١٠١) . وفى غرناطة بلغ اليأس بالموريسكيين أشده فاتفقوا فيما بينهم على الثورة دفاعا عن الذات قبل أن تنقطع بينهم وبين ماضيهم كل الصلات .

ولتصوير هذه الأوضاع اعتمد الأستاذ محمد عبد الله عنان على مارمول Marmol فى كتابه :

---

(٩٩) محمد رزوق ، الأندلسيون ، ص ٥٠ وارجع كذلك الى أنطونيو دومينغير هورتز وبرنارد بنثنت ، تاريخ مسلمى الأندلس ، الموريسكيون ، حياة ومأساة أقلية ، ترجمة عبد العال صالح طه ، قطر ، ١٩٨٨ ، ص ١٩ وما يليها .

(١٠٠) لمزيد من التفصيل عن هذا القانون ارجع الى محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٦ ، ويذكر د. محمد عبده حاملة أنه سبق هذا القانون سلسلة من الاجراءات والقوانين الجائرة أصدرها الملك فيليب الثانى منذ عام ١٥٦٠ وحتى عام ١٥٦٦ م (لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حاملة ، التهجير القسرى ، ص ١٨ - ٢٧) .

(١٠١) يذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان ، أن موريسكى .س. بلنسية أنفسهم لم يتميزوا عن غيرهم من الموريسكيين الا بتخفيف العقوبة فى حالة عدم تنفيذهم لهذا القانون (عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٦١) .

Historia de la rebelión y castigo de los moriscos en el reino de Granada.

كما اعتمد الدكتور محمد عبده حتمالة على أهم المصادر الاسبانية المعاصرة كما اعتمد على كتاب لمؤلف موريسكى مجهول بالاسبانية ، حول الثورة الموريسكية وتهجير الموريسكيين وأثار ذلك التهجير في جميع أنحاء شبه الجزيرة اليبيرية Historia del Alzamiento de los Moriscos. Su expulsión de España y sus consecuencias en todas las provisiones del Reino. فزودنا بمادة علمية وفيرة عن رد فعل الموريسكيين فى عام ١٥٦٧م أمام هذا القانون الجائر . أما الدكتور عبد الله جمال الدين فقد اعتمد عند تأريخه لهذه الحقبة على بيريث دى هيتا وروايته الحروب الأهلية فى غرناطة .

ويذكر الدكتور محمد عبده حتمالة أنه قبيل نهاية شهر ديسمبر من عام ١٥٦٧م ( ٩٧٥ هـ ) وهو الموعد المحدد لكى تتخلى فيه الموريسكيات عن البستنه الحيرية (١٠٢) وأزيائهن الاسلاميه وبالزام الأطفال الموريسكيين بتعلم اللغة الاسبانية والدين المسيحى بدلا من اللغة العربية والاسلام ، وبمنع المسلمين من استخدام الحمامات ، هرعت وفود موريسكية الى الرئيس ديسا (١٠٣) ، يتقدمهم اسباني كان يتمتع بنوع من التقدير فى الأوساط الموريسكية هو السيد خوان انريكيث ، وبصحبه اثنان من كبار الموريسكيين هما خوان فرنانديث من أعيان غرناطة ، وفرناندو الحبقى من أعيان وادى آش ، محاولين تعطيل تطبيق القانون الجديد ، ولكن كل جهودهم باءت بالفشل أمام مقابلة ديسا المهينة لهم ، بل أن ديسا كتب تقريراً مفصلاً يوحى فيه بتطبيق القانون الجديد بكل عنف وقسوة . فلما استبد اليأس بالموريسكيين ظهر من بينهم شاب كان يعمل صباغا يدعى فرج بن فرج من أسرة بنى سراج ، أشرف بيوتات غرناطة ، ساءه أن يعامل الموريسكيون بمثل هذه القسوة ، وعز عليه أن يرغم قومه على التخلي عن تقاليدهم الموروثة بكل وسائل القهر فاتصل بمن استطاع من الموريسكيين فى

(١٠٢) يعتبر تغيير الملابس واللغة أولى خطوات تغيير الهوية المميزة لأى شعب من الشعوب وعن

أثر ذلك فى هوية المسلمين فى الاندلس ارجع الى

Rachel Arié, «Acerca del traje musulmán en España desde la caída de Granada hasta la expulsión de los moriscos».

مقال فى مجلة المعهد المصرى بمطرد ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، ص ١١٥ . وقد أشارت الى ارتداء الثوار المسلمين وعلى رأسهم محمد بن أمية ملابس اسلامية كرمز لنبت طاعة الاسبان .

(١٠٣) هو المحقق دون بيدرو ديسا Pedro Deza أحد أعضاء المجلس الذى شكله الملك فيليب الثانى لدراسة أوضاع الموريسكيين (حتمالة ، التهجير القسرى ، ص ٣١) .

غرناطة عام ١٥٦٨م ( ٩٧٦هـ ) ( ١٠٤ ) . وكان فرج بن فرج بحكم ترده في معظم الأحيان على أنحاء البشرات وثيق الصلة بأهلها فاتفق معهم على أن تقوم قوة كبيرة منهم بالزحف الى غرناطة لمفاجأة الحامية الاسبانية وسحقها .

ولما كانت الحرب خدعة فقد رأى ابن فرج أن يرسل ثلاثة من أكثر المورييسكيين أمانة وثقة ليبلغوا اخوانهم خارج غرناطة بنيتهم ، كما تقدموا بطلب الى الحكومة الاسبانية يذكرون فيه أن غايتهم جمع الأموال لبناء مستشفى خارج غرناطة للمرضى الفقراء واللقطاء المسيحيين تمويها على الاسبان ، وبهذه الحجة تمكن المورييسكيون الثلاثة من الحصول على ترخيص الحكومة الاسبانية ، فخرجوا والتقوا باخوانهم وأبلغوهم أن يتخذوا مراكز لهم على السواحل التي يمكن أن تنزل اليها التعزيزات الاسلامية ، لاسيما من المغاربة والأتراك المسلمين ، ثم عادوا لغرناطة لتنظيم صفوفهم والاعداد لتنفيذ مخططهم واتفقوا فيما بينهم على تحديد يوم الخميس المقدس الموافق ليوم ١٤ أبريل ١٥٦٨م وهو أحد أعياد المسيحيين الذي يتواجدون فيه في الكنيسة موعد لاشعال نار الثورة . ولكن الخيانة لعبت دورا كبيرا عندما أقدم بعض عملاء الحكومة الاسبانية ببيع مصالح دينهم ووطنهم فأبلغوا السلطات بتفاصيل الخطة ، وانتهى الأمر بالقبض على عدد من وجهاء المورييسكيين مما ترتب عليه التوقف عن تنفيذها وتأجيل ذلك الى فرصة أخرى مواتية ، وتوجه فريق منهم الى المحقق دون بيدرو ديسا يعلنون ولاءهم في الظاهر ، وهم في داخلهم ينتظرون اليوم الذي ينتقمون فيه لأنفسهم وكرامتهم وعرضهم .

واتفق بعض رؤسائهم على الاجتماع في بيت بائع شمع مسلم يدعى عدل Adelet وقرروا أن تبدأ الثورة في اليوم الأول من شهر يناير عام ١٥٦٩م ( ٩٧٧هـ ) وأبلغوا المورييسكيين في بقية أنحاء غرناطة بالاستعداد لحمل السلاح ، فتجند ما يقرب من ثمانية آلاف شخص ، وتم الاتفاق على أن تقوم الثورة في ثلاثة مواقع في البيازين في وقت واحد ، حمل المورييسكيون فيها أعلاما يفترض أن يقوم كل حامل علم بمهمة محددة . فحاملو العلم الأصفر يحتلون ساحة باب البنود ، وحاملو العلم الأحمر يحتلون باب فجالونا ، وبعده يتجهون من باب سرى في اتجاه المستشفى الملكي ثم يسيطرون على محكمة التفتيش ليخلصوا

(١٠٤) عن المؤلف المورييسكى المجهول ارجع الى (حتملة ، التهجير القسري ، ص ٢٣) وقد أشار الدكتور عبد الله جمال الدين الى ثورة فرج بن فرج اشارة سريعة دون الدخول في تفاصيل (عبد الله جمال الدين ، المسلمون المنصرون أو المورييسكيون الأندلسيون ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٨٥ ، ٨٨) وعن ثورة فرج بن فرج بن سراج ارجع كذلك الى

Julio Caro Baroja, «Los moriscos del reino de Granada», p. 174.

المسلمين المعتقلين هناك ، أما حاملو العلم الأزرق فكانت مهمتهم تقتضى البحث عن الرئيس ديسا لقتله على أن تلتقى الفرق الثلاثة في ساحة باب الرملة حيث يمكنهم بمساعدة المطوعة الذين يبلغ عددهم ثمانية آلاف الدفاع عن المدينة (١٠٥).

وفي هذه الأثناء خرج جماعة من حراس محكمة غرناطة الى قرية بقيرة ومعهم خمسون جنديا اسبانيا ، لقضاء عيد الميلاد ، فهاجمتهم جماعات الموريسكيين الثوار . وفي اليوم المحدد بعث على باشا والى الجزائر التركى امدادات الى الموريسكيين نزلت على سواحل المرية ومربلة ثم توجهت الى الأماكن المحددة لها . ولكن هذه الثورة لم يتح لها أن تنفذ كما خطط لها اذ هطلت ثلوج غزيرة على جبل شلير Sierra Nevada فانسدت الطرق الى غرناطة ولم يتمكن ثوار البشرا والملتوعين من الوصول في الموعد المحدد .

ويرجع سبب ذلك الى أن فرج بن فرج بن سراج لم يحسب حسابا للبرد والثلج بل أنه توجه على رأس مائتى مقاتل من الموريسكيين من بينوس Pinos وثنيس Genes الى أسوار غرناطة وأخبر أهالى البشرا أن أهل البيازين سينضمون الى الثورة ، واعلم أهل البيازين أن ثمانية آلاف مسلم من لكرين Lectrin سينضمون اليهم ، وتقدم فرج بن فرج بمن معه الى أسوار غرناطة وهم يكبرون ويهتفون بعبارة « لا اله الا الله ، الله أكبر ، الله أكبر » ولكن أهل البيازين لما رأوا قلة المهاجمين أغلقوا عليهم أبوابهم مما أغضب الثوار ، كما أن الأهالى والمتطوعين القادمين من المغرب لم يلحقوا بهم فباعت خطتهم بالفشل ، واضطروا الى الاعتصام بالجبال المغطاة بالثلوج لحماية لأنفسهم من بطش السلطات الاسبانية بهم ، وبهذا تراجع فرج بن فرج حتى وصل الى البشرا (١٠٦) . ومع ذلك فان اليأس لم يتسرب الى قلوب الموريسكيين الذين عادوا للاجتماع من جديد لمتابعة الجهاد ، في معركة الحياة أو الموت ، معركة المصير ، وأعلنوا استقلالهم وبدأوا يفكرون في اختيار زعيم لهم بخلاف فرج بن سراج ، فقد كانوا يسعون الى اختيار زعيم يكون رمزاً لملكهم القديم تتوفر فيه روح الشجاعة والاقدام وينتسب في ذات الوقت الى احدى البيوتات الحاكمة للاندلس في العصور الماضية ، فوق اختيارهم على شاب من أهل البيازين يدعى دون فرناندو دى فالور وفي بعض الأحيان دى كاردوبا أو قرطبة ، وكان هذا الاسم الاسباني المسيحى يخفى وراءه حقيقة هذا الزعيم الجديد ، فدى فالور كان يرجع بجذوره الى بنى أمية ، أى كان سليل

(١٠٥) عن المؤلف الموريسكى المجهول ارجع الى (حتملة ، التهجير القسرى ، ص ٣٥) .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

خلفاء قرطبة ، وكان اسمه الحقيقي الذى أعلنه عندما قام بالثورة هو محمد ابن أمية (١٠٧) .

وكان لابن أمية مهابة كبيرة فى نفوس المورييسكيين والاسبان على السواء ، فقد كان قد أختير المستشار الرابع والعشرين لبلدية غرناطة ، ولكن بالرغم من ذلك كان موضع شك وريبة من قبل السلطات الاسبانية لا سيما فى الفترة التى سبقت الثورة حتى أنهم أودعوه فى السجن . وظل ابن أمية فى السجن حتى قام فرج بن فرج بن سراج بثورته المعروفة فى ليلة ٢٤ ديسمبر ١٥٦٨م ، فتمكن من تخليصه مع خادمه من سجنه ، فانطلق ابن أمية الى أقاربه فى برذرناز ( وادى لكرين ) Béznaar حيث أجمعوا على مبايعته ونادوا به ملكا فى ٢٧ ديسمبر ١٥٦٨م ، وأقرته مناطق عديدة حددها الدكتور محمد عبده حتاملة فى كتابه (١٠٨) ويذكر مارمول Marmol أن محمد بن أمية كان فى العشرين من عمره يمتاز بوسامة ونبل طلعت ، واحتفل المورييسكيون بتنصيبه وتتويجه فى ٢٩ ديسمبر ١٥٦٨م احتفالا متواضعا حيث فرشوا الأرض بالأعلام الاسلامية ذات الأهلة فصلى عليها ابن أمية متجها صوب مكة وقبل أتباعه الأرض أمامه رمزا للخضوع والطاعة ، وأقسم الأمير ابن أمية أن يموت فى سبيل دينه وأمتة (١٠٩) .

ويذكر د. حتاملة نقلا عن المؤلف المورييسكى المجهول أن اختيار المورييسكيين لمحمد ابن أمية وتنصيبهم له أميرا عليهم أصاب فرج بن فرج بن سراج بالاستياء لأنه كان يعتبر نفسه أكثر خبرة فى مجال الحرب والقتال فضلا عن أنه كان أول من دعا المورييسكيين لمحاربة الاسبان ، وأنه من أسرة بنى سراج العريقة ، ولكن ابن أمية رأى أن يكسبه ويألفه ويتخذ حليفا فاختاره كبيرا للوزراء Alguacil Mayor وهى أعلى رتبة عرفها المورييسكيون (١١٠) .

وفى ٣١ ديسمبر ١٥٦٨ سار فرج بن فرج على رأس خمسمائة فارس مورييسكى فى محاولة لابقاظ روح الثورة فى جميع أنحاء مملكة غرناطة من سواحل بيرة

(١٠٧) عن مارمول ارجع الى محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٦٥ . وعن تفاصيل الثورة ارجع كذلك الى عادل سعيد بشتاوى ، الاندلسيون المواركة ، ص ١٥٠ وما يليها . ويذكر د. عبد الله جمال الدين أن أحد أبناء بنى أمية وهو «ابراهيم بن أمية» قاد ثورة المورييسكيين سنة ١٥٠٠م وقد تمكنوا بفضلهم من السيطرة على عدة حصون ساحلية فى البشترات قبل أن يتغلب عليهم الاسبان (عبد الله جمال الدين ، المسلمون المنصرون ، ص ٣٦ ، كما يؤكد د. عبد الله جمال الدين أن محمد بن أمية يرجع بأصله الى عبد الرحمن الداخل نفسه (المرجع السابق ، ص ٨٧) ولمزيد من التفاصيل عن ثورة ابن أمية ارجع الى Baroja, «Los moriscos», pp. 173-185

(١٠٨) لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتاملة ، التهجير القسرى ، ص ٤٠ ، ٤١ (١٠٩) عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٦٥ - أنطونيو دومينغيز مورتز ، برنارد بنتنت ، تاريخ مسلمى الاندلس ، المورييسكيون حياة ومأساة أقلية ، ص ٤١ (١١٠) حتاملة ، التهجير القسرى ، ص ٤١



( Vera جنوب قرطاجنة ) الى جبل طارق وانضم اليه العديد من الموريسكيين وهم يهتفون بالعبارات الاسلامية ويكبرون فأحرقوا الكثير من الكنائس التي كانت يوما ما مساجد لهم ونكلوا بالعديد من القساوسة الذين طالما ذبحوا المسلمين وعذبوهم . وأساء ابن فرج التصرف فقد أقدم على الفتك بعدد كبير من النساء والأطفال والشيوخ مما أثار استياء ابن أمية وغضبه فعزله عن قيادة الجيش (١١١) وعين بدلا منه عمه ابن جوهر . وأثارت هجمات ابن فرج الشرسة وانضمام الموريسكيين في ثورتهم تحت راية ابن أمية الرعب في نفوس سكان غرناطة ونواحيها . ويذكر د. عبد الله جمال الدين أن الثورة الموريسكية قد تميزت بملحميين أساسيين أولهما وهو الطابع الدينى الذى سبق أن ذكرناه من قبل ثم طابع الرغبة في احياء كل مظاهر الثقافة الاسلامية ومن مظاهر احياء الطابع الدينى ، قتل وتعذيب المسيحيين الذين كانوا في الأصل من المسلمين ثم تنصروا قسراً ، وتحطيم الكنائس وما فيها من صور وتماثيل مرتبطة بالعبادة المسيحية أما عن مظاهر احياء الثقافة والهوية الاسلامية فتمثلت في احياء رسالة المسجد واقامة الشعائر الاسلامية بكل فخر واعتزاز لا سيما في منطقة أوجيخز والعودة الى استخدام الزى والعادات الاسلامية (١١٢) .

ولكن بعزل ابن أمية لفرج بن سراج يخفى ذكره عن مسرح الأحداث ، وتنتهى بذلك سيرة بنى سراج في تاريخ الأندلس بينما تمضى ثورة ابن أمية ما بين الجهاد والخيانة الى أن انتهت كل جهود الموريسكيين بالفشل .

واذا كانت ثورات الموريسكيين قد انتهت في القرن السادس عشر الا أن الموريسكيين استمروا يمارسون الاسلام في اسبانيا خلال القرن ١٧ ، بل والثامن عشر كله ، ويؤكد ذلك تاريخ محاكم التفتيش التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بسياسة تعذيب المسلمين والتمثيل بهم (١١٣) . ولم تكن حياة الموريسكيين الدينية رغم ما كانوا يتعرضون له من تعذيب تختلف في جوهرها عن الحياة الدينية للشعوب

(١١١) المرجع السابق ، ص ٤٢ ، في حين يذكر كل من الاستاذ محمد عبد الله عنان والدكتور عبد الله جمال الدين نقلا عن مارمول أن ابن أمية كان قد اختار عمه ابن جوهر (فرناندو الصغير) قائدا للجيش منذ البداية (نهاية الاندلس ، ص ٣٦٥ - المسلمون المنصرون ، ص ٨٨) ولكننا نرجح رواية د. حتاملة لأن مصدره في ذلك مؤرخ مسلم موريسكى في حين أن الاستاذ عنان يعتمد على رواية قشتالية لمامول في حين يعتمد د. عبد الله جمال الدين على كل من

Vincent Bernard, «Historia de los moriscos.

وكذلك على كتاب Baroja, «Los moriscos del reino de Granada.

(١١٢) عبد الله جمال الدين ، المسلمون المنصرون ، ص ٩٤

(١١٣) سري محمد محمد عبد اللطيف ، الهوية الاسلامية للموريسكيين من خلال أدب الاخميادو من أعمال الملتقى العالمى الخامس للدراسات الموريسكية ، ج ٢ ، زغوان ، ١٩٩٣ ، ص ١٥١

الاسلامية أو لغيرهم من الشعوب التي كانت أو ما زالت تدين بالاسلام (١١٤) ،  
فقد استمر الموريسكيون يعتزون بالهوية الاسلامية ولدينا قصيدة رومانسية  
عنوانها « العربية المخدوعة » حيث تقول الفتاة الموريسكية :

أنا عربية عروب  
عربية من نسل ابن قطر  
مسيحي جاء لبابي  
جاء يبغى لى الخطر  
حدثنى بلغتى الحبيبة  
كأنه من أهل طيبة  
افتحى الباب يا عربية . . (١١٥)

وقبل أن نختتم حديثنا عن تاريخ بنى سراج تجدر الإشارة الى أن كثيراً من  
المؤرخين تشككوا أصلاً في وجود بنى سراج لكثرة الأساطير التي أحيطت بهم  
وقلة الآثار الدالة عليهم في نفس الوقت (١١٦) ، فاعتبروهم ضرباً من الوهم  
والخيال غير أن النصوص التاريخية التي اعتمدنا عليها في دراستنا تؤكد الدور  
الكبير الذي قاموا به بالإضافة الى الشواهد الأثرية وتتمثل في النقوش الجنزية  
التي تسجل وفاة بعضهم وآثار قصر منسوب اليهم : ففي حدود عام ١٩٦٥ م ،  
وقع زلزال بجنوب اسبانيا ، أثر على المناطق الواقعة بجوار السور الرئيسى  
لقصر الحمراء بين باب العجالات وبرج الرؤوس Las Cabezas ، وقد كشف  
هذا الزلزال عن وجود آثار عديدة لقصر بنى سراج حيث أنه حتى نهاية القرن  
الثامن عشر ، لم يكن ظاهراً منه الا بضعة جدران غير كاملة . وهذه الآثار رغم  
قلتها تؤكد في حد ذاتها وجود هذه الأسرة كحقيقة تاريخية (١١٧) . وقد أشار  
مانويل جومث مورينو Manuel Gómez Moreno الى هبة قدمها الملكان  
الكاثوليكيان الى دون خوان شاكون Don Juan Chacón سيد قرطاجنة ،  
تتمثل في دار لبنى سراج (١١٨) .

(١١٤) المرجع السابق ، ص ١٥٢

(١١٥) صلاح فضل ، ملحمة المغازى الموريسكية ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٢٨

(١١٦) Jesús Bermúdez Pareja, María Angustias Moreno Olmedo, «El palacio de los abencerrajes», cuadernos de la Alhambra, núm. 5, Granada, 1969, p. 55.

(١١٧) تعتبر الدراسة القيمة التي قام بها لويس سيكو دى لوثينا من أهم الدراسات التي  
سلطت الضوء على بنى سراج وميزت بين ما هو حقيقى وما هو وهمى (ارجع الى

Luis Seco de Lucena, «Los abencerrajes, leyenda, historia», Granada, 1960. Jesús Bermúdez Pareja, María Angustias Moreno, «El palacio», p. 55.

وارجع كذلك الى بحث Rachel Arié, «Le Royaume», pp. 150-170.

(١١٨) Manuel Gómez Moreno, «Guía de Granada, Granada, 1892, pp. 151-152.

ويؤكد كل من الأثريين María Olmeda و Jesús Pareja على أن هذا ينهض دليلاً قاطعاً على أن بعض بنى سراج كانوا يعيشون في قصور الحمراء ، وأنهم كانوا يؤدون وظائف سامية ويمارسون أعباد إدارية هامة في السنوات الأخيرة من حكم السلطان أبي عبد الله محمد .

وربما يكون قصر بنى سراج قد انتقل إلى ملكية أحد القضاة في غرناطة في العصور التالية لسقوط غرناطة فالأب Juan De Echeverría يشير إلى نقش كان مسجلاً في القرن الثامن عشر على الباب الخارجى للبناء يؤكد أن هذا القصر الذى كان يملكه بنو سراج هو قصر القاضى كما أنه وجد إشارة بين الوثائق تؤكد ذلك (١١٩) .

ونستنتج من وجود آثار لهذا القصر أنه كان لا يختلف في بنيانه وفي زخارفه عن قصور بنى نصر ، وأنه كان مزوداً بصحن داخلى وواجهة حافلة بالزخارف ، ولا نستبعد أنه يتوسط فناءه بركة صناعية وأنه كان يشتمل على مرافق متعددة تضم اسطبلات ومخازن . وهناك وثيقة مؤرخة بتاريخ مارس سنة ١٥٠٢ م ، تصف قصر دون خوان شاكون أو قصر بنى سراج ، ورد فيها ذكر عدد من البرك ، ومطبخ وبيوت صغيرة مما يعبر على أن قصر بنى سراج كان كبير المساحة وأنه كان يشتمل على ملحقات كثيرة . أما الواجهة فكانت تزدهر من أعلى بنقش يمثل كفا مبسوطة ومفتاحاً على غرار نظيره على باب الشريعة في مدخل قصر الحمراء ، ويبدو أن الثراء الزخرفى للبوابة يجعل من هذا القصر صورة مصغرة من قصور الحمراء (١٢٠) .

أما وثائق الحمراء في القرن ١٦م فتسمى قصر بنى سراج « بيت الحاسب » وهذا يدل على أن هذا القصر تحول إلى شخص آخر بمعنى أنه لم يعد يعيش فيه دون خوان شاكون وإنما دون رودريجو دافالوس Don Rodrigo Davalos الحاسب الخاص لكونت دى تنديللا Conde de Tendilla (١٢١) وفى سنة

(١١٩) Padre Juan de Echeverría, «Paseos por Granada, por los años de 1764» y ahora nuevamente impresos, Granada, 1814, t. I, pp. 333-335, Jesús Bermúdez, op. cit., p. 56.

(١٢٠) Jesús Bermúdez, Ibid, pp. 56-57.

(١٢١) Ibid, p. 57. وكنت دى تنديللا De Tendilla هو القائد لوبث دى مندوسا الذى عينه فرناندو الكاثوليكي حاكماً عسكرياً لغرناطة (عن مارمول أرجع إلى عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٢٦٦) .

١٥٤٥م طالب ميغيل دى شاكون بحقه فى ملكية هذا القصر باعتباره وريثا لدون خوان شاكون (١٢٢) .

وسنورد فى البحث وثيقة تتضمن قضية أثارها دون ميغيل دى شاكون ضد الحاسب ، المالك الجديد للقصر وآخرين حول قصر بنى سراج .

---

(١٢٢) أورد دون خيسوس باريدا قائمة عبارة عن أسماء كل أفراد أسرة دون خوان شاكون ، ( Ibid, pp. 58-59 )

## ثانياً بنو سراج في الأسطورة والقصص الشعبي :

( ١ )

### نكية بني سراج والأساطير التي دارت حولها

تعرضنا في سياق حديثنا عن « بني سراج في المصادر التاريخية عن علاقتهم بسلطين غرناطة وأوضحنا كيف أنهم كانوا يحركون خيوط الأحداث السياسية خاصة منذ عصر السلطان الأيسر . وقد تعرضنا في دراستنا لشرح موقف بني سراج من السلطان أبي عبد الله ( الصغير ) أو الزغير الذي اغتصب العرش من السلطان الأيسر مما تسبب في هرب هذا الأخير الى تونس في حين أثر بنو سراج البقاء في الأندلس للسعى في تقويض دعائم حكم السلطان الزغير ، وإعادة الأيسر الى عرشه المغتصب ، وقد شرحنا كيف هرب الوزير يوسف بن سراج الى ملك قشتالة واستنصر به لإعادة الأيسر ، وكيف تكلفت جهوده في نهاية الأمر بالنجاح ، فاسترد الأيسر العرش السلطاني بعد أن تخلص من الزغير . ولا نشك في أن الزغير ، كان طوال فترة حكمه يستشعر الخطر من قبل بني سراج فكان يطاردتهم . وتمكن من النيل من بعض أفرادهم ففر بقية أفراد الأسرة الى اشبيلية التماسا للنجاة من مكائد الزغير . ويذكر الأمير شكيب أرسلان بأن هذه الأحداث السياسية التي عاشتها أسرة بني سراج زمن الأيسر وأبي عبد الله الزغير ، كانتت مجالا خصبا لبعض الأغاني الشعبية ، فقد أشارت بعض الأغاني المتعلقة بفتح قلعة الحامة (١٢٣) الى واقعة مقتل أفراد من بني سراج زمن الزغير (١٢٤) في حين تذكر راشيل أرييه أن قصيدة « آه من حامي » الرومانثية الخاصة بموضوع بني سراج قد ألقت بمناسبة سقوط الحامة في أيدي القوات القشتالية بقيادة مركز قادش وهي القوات التي انضمت اليها أجناد اشبيلية ونجحت في النهاية في الاستيلاء على مدينة الحامة الصغيرة الواقعة على جانب من الجادة التي تربط غرناطة بمالقة ، واستؤنفت بعدها حركة الريكونكيستا وهي الحرب

(١٢٣) الحامة أو الحمة Alhama ، تقع على بعد أربعين كيلومترا جنوب غربى غرناطة وسميت بهذا الاسم لتفجر العيون الحارة بها وقد أورد صاحب نبذة العصر أخبارا عن سقوطها في أيدي النصارى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٢٢ م) (نبذة العصر ، ص ١٠ ، ٥١) ولزيد من التفاصيل عن سقوطها وجهود السلطان أبي الحسن على للدفاع عنها ( ارجع الى محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ) .

(١٢٤) شكيب أرسلان ، آخر بني سراج ، ص ٦٤ .

التي انتهت بسقوط غرناطة خلال عشرة سنوات . وتبدأ القصيدة الرومانسية باعلان نكبة الحامة التي استشعرها أهل غرناطة بعمق ، وذلك بذكر الدور الأول منها في المقطع الذي تندب فيه سقوط الحامة « أه من حامتى » والتي تتردد ٤ مرات ، وهو مقطع يلوم فيه عالم غرناطى ملتحنى بلحية شيباء سلطان غرناطة بعنف لأخطائه ، وينسب اليه تبعة سقوط الحامة بسبب اصداره الأمر بقتل أفراد من أسرة بنى سراج الذين كانوا الزهرة اليانعة في طبقة المحاربين النبلاء بمملكة غرناطة (١٢٥) . ويذكر لويس سيكو دى لوثينا أن هذه القصيدة من حيث تكوينها الموزون ومن حيث الموضوع الذى تدور حوله لا يمكن أن تكون سوى من أداء مسلم أندلسى ، وربما صيغت في نهاية القرن الخامس عشر أو الثلث الأول من القرن السادس عشر ، وأن السلطان الذى تدور حوله هو السلطان أبو الحسن على ، ونحن نتفق مع دى لوثينا وآرييه في هذا الرأى لأنه يتفق مع المنطق والتاريخ فالحامة قد سقطت في زمن أبى الحسن على ولا يعقل أن تؤلف قصيدة « أه من حامتى » التي ورد فيها ذكر بنى سراج تخليدا لذكراهم بعد مقتلهم زمن الزغير ، كما يذكر الأمير شكيب أرسلان ، وانما الأقرب الى المنطق أن تكون القصيدة المعاصرة لأبى الحسن على تشير الى نكبة بنى سراج في عصره ، خاصة وأن الأحداث التاريخية تؤكد ذلك ، وكنا قد ذكرنا في الصفحات السابقة ما يؤكد ذلك وأوضحنا كيف أن بنى سراج ساعدوا الأميرة عائشة الحرة على الفرار مع ولديها من اضطهاد زوجها السلطان أبى الحسن على لهم ، بتحريض من زوجته الجديدة « ثريا » أو ايزابيل دى سوليس ، وقد أوضحت آنذاك أن السلطان أبا الحسن على لم يغفر لبنى سراج أبداً مساعدتهم لعائشة الحرة ، وتأبيدهم لولده الأكبر أبى عبد الله محمد في معركته ضده ، فانتقم منهم شر انتقام . ويؤكد رأينا هذا العبارات التي وردت في القصيدة ، فنحن نطالع هذه العبارة عدة مرات « قتلت بنى سراج الذين كانوا زهرة غرناطة »

Mataste los Bencerrajes que eran la flor de Granada

كما توجد اشارات على وفاء بنى سراج للسلطانة عائشة ولوالدها الراحل لذلك فقد نكبهم السلطان أبو الحسن وقتل عددا كبيرا منهم ، أما من نجا منهم فقد لجأوا الى قشتالة ونزلوا باسرة دوق مدينة شذونة Medina Sidonia أو الى احدى الأسر الأخرى النبيلة بها ، كما لاذ آخرون ببعض المدن القشتالية المجاورة للحدود (١٢٦) .

(١٢٥) Rachel Arié, «Le Royaume», pp. 154-156.

op. cit., p. 158. (١٢٦)

كانت هذه الأحداث موضوعاً للروايات والأساطير الشعبية التي حرفت الحقيقة التاريخية فخلطت بين السبب الحقيقي الذي دفع أباً الحسن على الانتقام من بنو سراج وهو سبب سياسى كما ذكرنا فجعلت وراء هذه النكبة التي حلت بهذه الأسرة العريقة قصة عاطفية رقيقة ، تقول الأسطورة أو الرواية التي وردت في الأغاني الأسبانية والتي أشار إليها الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني سفير ملك المغرب الى ملك اسبانيا في أواخر القرن السابع عشر في رحلته نقلاً عن التواريخ الأسبانية (١٢٧) أن عميد هذه الأسرة ، محمد بن سراج الذي كان من أبرز الفرسان وأشهرهم في غرناطة في زمنه ، هام بحب أميرة من الأسرة المالكة اسمها « الفاهمة » مما أثار عليه غضب السلطان في ذلك الوقت ، فقرر سحق الأسرة كلها ، فدبر مؤامرة لقتلهم . وكانت خطته تقضى بان يدعو أكابرهم لحضور حفل في القاعة المواجهة لبهو السباع بقصر الحمراء ، وكلما يدخل واحد من أفراد أسرة بنو سراج بادره حراس السلطان بالقتل ذبحاً على حافة الحوض الرخامى الذى يتوسط هذه القاعة حتى قتل جلة فرسان هذه الأسرة التى فقدت من جراء هذه المؤامرة خيرة أنجاده . وسميت هذه القاعة منذ ذلك الحين باسم « قاعة بنو سراج » وتقول الأسطورة أنه لا تزال توجد آثار بقع دامية داكنة في قاع الحوض الذى سالت فيه دماء بنو سراج وأنها لم تمح قط ، وتضيف الأسطورة على ذلك بأنه لا تزال تسمع في تلك القاعة في بعض الليالي أنات وقرقة سلاح ، وان كثيراً من حراس قصر الحمراء لمحوا جنوداً مسلمين في ألبستهم العربية يقطعون بهو السباع جيئة وذهاباً (١٢٨) .

ويرفض الأمير شكيب أرسلان هذه الروايات الأسطورية ويربط بين هذه الأسطورة وبين قصة العباسية مع جعفر البرمكى وما أدت اليه من نكبة هارون الرشيد للبرامكة (١٢٩) .

أما واشنطن إيرفينج فقد ذكر فيما يتعلق بهذه الأسطورة أن السلطان أبى عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة ، كان السلطان المقصود في أسطورة مصرع بنو سراج ، وقد ناقش هذه الرواية الشعبية وذكر أنها مجرد حكاية خرافية وأنه اذا كان علينا أن نتقبل بعض جوانب من هذه الروايات ، فإن الأقرب الى الحقيقة التاريخية أن يكون السلطان أبو الحسن على هو المشار اليه وليس ولده أبو عبد الله لأن بنو سراج كانوا يناصرون الابن على أبيه كما أشار الى دور بنو بنيغش في نكبة بنو سراج (١٣٠) .

(١٢٧) رحلة الوزير في افتكاك الأسير ، للوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني ، العرائش ، ١٩٤٠ ، ص ٣٤ وما يليها .

(١٢٨) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٠٢ -

Rachel Arié, «Le Royaume», p. 155

(١٢٩) شكيب أرسلان ، آخر بنو سراج . ص ٦٤ .

(١٣٠) واشنطن إيرفينج ، قصر الحمراء ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

( ٢ )

## رواية « ابن سراج »

كتبت رواية « ابن سراج » بعد سقوط غرناطة بحوالى سبعين عاما أى بعد أن كانت قضية الصراع الدينى قد حسمت لصالح المسيحيين (١٣١) وهى ترجمة أرغونية مجهولة لمؤلف لأقصوصة عنوانها « جزء من تاريخ ولى العهد الشهير دون فرناندو ( ١٥٥٠ - ١٥٦٠ م ) » ومهداه الى بارون باربولس خيرونيمو أمبون Barboles Jerónimo Jiménez Embún وهو اقطاعى عرف بدفاعه المتواصل عن المورييسكيين أمام سلطة محاكم التفتيش ، وقد ظهرت هذه الرواية قبل انتفاضة البشترات الأخيرة التى قادها فرج بن فرج ابن سراج فى البداية ثم تبعه فى ذلك محمد بن أمية ، أى قبل تلك الفترة القاسية التى عاشها المورييسكيون فى اسبانيا (١٣٢) .

ويذهب لويث استرادا فى طبعته النقدية لهذه الرواية الى القول بأنه بعد سقوط غرناطة اشتد الصراع بين المطالبين بطرد المورييسكيين من اسبانيا ، والراغبين فى بقائهم . ويبدو أن الفريق الثانى الداعى الى بقائهم (١٣٣) أوحى الى الأدباء باظهار المورييسكيين فى صورة مثالية . وكان من المنطقى أن يؤثر هذا الموقف على الفريق المتشدد ليخفف من تعصبه ولكنه تسبب فى مزيد من التشدد وفى تشويه صورة المورييسكى الذى اعتبروه عدوا لدودا (١٣٤) .

(١٣١) جمال عبد الرحمن ، صدى سقوط غرناطة الاسلامية فى الأدب الاسبانى ، من أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات المورييسكية الاندلسية ، زغوان ، ١٩٩٣ ، ج ٢ ، ص ١٩٥ وما يليها .

(١٣٢) لوئى لويث بارالت ، أثر الاسلام فى الأدب الاسبانى من العصور الوسطى الى الوقت الحاضر ، تعريب د. محمد نجيب بن جميع ، تقديم ومراجعة د. عبد الجليل التميمى زغوان ، ١٩٩٠ ص ٤٩ وما يليها .

(١٣٣) لم يكن أنصار هذا المبدأ يرغبون فى ابقاء المورييسكيين حياً فيهم أو بدافع الاشفاق عليهم وانما رغبة فى تيسير الأمور فى بلادهم اذ كان المورييسكيون هم الذين كانوا يشتغلون بالزراعة والأعمال الحرفية (ارجع الى أنطونيو دومينغير هورتز ، برنارد بنثنت ، المرجع السابق ، ص ١٩٣) ولمزيد من التفاصيل عن آثار طرد المورييسكيين الطرد النهائى على اقتصاد اسبانيا (ارجع الى المرجع السابق ، ص ٢٥٦ وما يليها) . وعن المهن التى كان يعمل بها المورييسكيون وعن ابعادهم عن شغل الوظائف الحكومية ارجع (الى عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، ص ١٤٤ وما يليها) .

Anónimo: «El abencerraje», edición de López Estrada, Madrid, 1982, (١٣٤) páginas 84-85.



وأبرز عملين أدبيين في المرحلة المعاصرة لسقوط غرناطة هما رواية « ابن سراج » التي تمثل التيار المعتدل تجاه الاسلام ، والثانية رواية بيريث دى هيثا « الحروب الأهلية في غرناطة Guerras civiles de Granada » وهذه الرواية الأخيرة تجمع بين الاعتدال والتعصب ضد الاسلام ، وسنتناولها بالتحليل في الصفحات التالية .

أما رواية « ابن سراج » التي تحمل بين طياتها تعاطفا مع بطلها الشريف المسلم ابن درايت Abindarraéz وهو آخر ذراري هذه الأسرة الباقين في اسبانيا ، فتروى أن هذا الشريف من بنى سراج ، بينما كان يمضى في طريقه للقاء محبوبته شريفة الجميلة (١٣٥) ، اعترض طريقه فرسان مسيحيون مسلحون فاشتبك معهم ابن سراج ، وقتل ثلاثة منهم بينما فر الرابع طالبا النجدة من القائد ، الذى لم يتردد في نصرته ، وتقدم لمطاردة ابن سراج ومبارزته وينجح في التغلب عليه اذ كان قد أصيب بجراح أثناء المعركة ، فتوجه ابن سراج للقائد المسيحي قائلاً له أنه لم ينتصر عليه لتفوقه في القتال والفروسية وانما لأن الله أراد أن يحول بينه وبين محبوبته ، ثم أخذ ابن سراج يقص على القائد المسيحي قصة حبه لشريفة ، وأنه كان في الطريق اليها وتذكر الرواية أن القائد الاسباني تعاطف مع ابن سراج فاطلق سراحه لمدة ثلاثة أيام يعود بعدها اليه ، وينصرف ابن سراج ليلتقى بمحبوبته ويتزوجها ويعود بعد ثلاثة أيام ومعه زوجته الى ذل الأسر ، ويدهش القائد من وفاء الشريف المسلم بوعده ، فيطلق سراحه بلا فدية ، ويتوجه الزوجان الى بلدهما ويرسلان الى القائد الاسباني هدية عبارة عن مجموعة أسلحة وجياد وعملات ذهبية ، وتشير الرواية الى أن القائد المسيحي قبل الجياد والسلاح بينما رد اليهما العملات الذهبية شاكراً ، معلناً قيام صداقة قوية بينه وبين ابن سراج المسلم دامت مدى الحياة ، كما أرسل القائد المسيحي رسالة الى سلطان غرناطة يعبر فيها عن حسن ظنه بابن سراج . ومن الجدير بالذكر أن المؤلف المجهول لرواية ابن درايت من بنى سراج يتحدث بلسان بطله مادحا أسرة بنى سراج المشهورة فيقول ( أنسا من بنى سراج الغرناطيين الذين سمعت كثيراً عنهم . لقد كان بغرناطة أسرة من الفرسان يسمونهم بنو سراج كانوا زهرة هذه المملكة لأنهم بلطف أشخاصهم ومظهرهم وقوتهم كانوا يعلمون الآخرين هذه المزايا ولم يكن بينهم أبداً أى خائن أو جبان » .

وابن درايت «بن سراج» بذلك يرسم صورة بنى سراج باعتبارهم فرسانا ببلاط غرناطة ، ثم يروى بعد ذلك أن سلطان غرناطة كان يظن بسبب الدسائس

والوشايات أن بنى سراج كانوا يرغبون في القضاء عليه وتقسيم ملكه وعندئذ أمر بقتل اثنين منهم ثم اتبعهم بعشرة في ليلة واحدة .

كذلك نلاحظ أن تمجيد بنى سراج في هذه الرواية يتمثل في عبارة « بنو سراج الذين كانوا زهرة غرناطة » وهى نفس العبارة التى وردت في القصيدة الرومانسية « آه يا حامتى » (١٣٦) .

والرواية كما نرى فيها اشادة بكرم المسيحى وسمو أخلاقه ، وفيها أيضا مدح لوفاء المسلم لعهدده ورده الجميل لمن أحسن اليه (١٣٧) .

وتطرح الدكتورة لوئى لوباث يارالت سؤالاً يعبر عن مدى تعجبها من وجود أدب مناصر للعرب في اسبانيا في هذه المرحلة التاريخية العنصرية بالنسبة للموريسكيين والتى أسمتها بعصر « محاكم التفتيش » وتذكر أن الموقف المعتدل للمسلمين من خلال رواية « ابن سراج » والتعاطف المسيحى نحوه لحبه الصادق لشريفة المسلمة يعد لغزا من الألغاز المطروحة في الأدب الاسبانى ، إذ أنه من التناقض أن يمجّد الأدب الاسبانى صورة المسلم ويبرزه في أحسن مظهر وأعمق جوهر في الوقت الذى كان فيه الموريسكى يمنع المسلم من هويته الثقافية وينكل ويمثل به ويحرق حيا (١٣٨) .

وقد ساهم عدد من المتخصصين في الرد على هذا التساؤل ومن أبرز هذه الآراء رأى الناقد الاسبانى مرثيلينو منندث اى بلايو Marcelino M. Pelayo

(١٣٦) Rachel Arié, op. cit., p. 157.

وقد أوردت المؤرخة الكبيرة راشيل أرييه كى الروايات والقصائد الشعبية التى تعرضت لبنى سراج ، وذكرت كل ما جاء فيها من أخبار مختلطة ومضطربة ونلاحظ أن مؤلف رواية «ابن سراج» قد تأثر الى حد كبير بما عرف في العصور العربية القديمة عن المنذر بن امرئ القيس المعروف بأبن ماء السماء (٥١٨ - ٥٥٤ م) فقد عرف عنه أنه كان قد حدد أياماً عرفت باسم «أيام البؤس» يقتل فيها من يقابله المنذر ليطلق بدماء القتل برجين كان يملكهما ابن ماء السماء . وتذكر الروايات التى وردت في المصادر العربية أن ابن ماء السماء قد التقى في أحد أيام البؤس الشاعر حنظلة بن عفراء فأمر بقتله ، ولكن حنظلة استسمحه أن يمهل عاماً يرجع فيه الى أهله ليؤدى مهمة تم يرجع اليه لتنفيذ حكم القتل فيه . ووافق المنذر بن ماء السماء على هذه المهلة ، ولما انتهى الأجل المحدد ، عاد حنظلة ، محافظاً على وعده الى المنذر ليطلق فيه حد القتل ، فعجب المنذر من وفاء حنظلة بعهدده وسأله عن دينه ، فأجابه حنظلة بأنه النصرانية فكان ذلك سبباً من أسباب تنصر المنذر وكل أهل الحيرة .

ونحن نميل الى الاعتقاد بتأثر رواية ابن سراج بقصة حنظلة مع المنذر بن ماء السماء (لمزيد من التفاصيل عن قصة حنظلة بن عفراء ارجع الى ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مادة غريان ، ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ ، ص ٢١٩ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٤ - ١٦٥) .

(١٣٧) جمال عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

(١٣٨) لوئى لوباث يارالت ، أثر الاسلام ، ص ٤٩ .

الذي فسر هذا التناقض بأنه صورة من الصور التي تبرز الصراع التقليدي بين الأدب والتاريخ (١٣٩) ، في حين اكتفى الناقد الفرنسي جورج سيرو Georges Cirot بإبداء الدهشة تجاه الهوية التي تفصل بين الأدب المناصر للعرب والتاريخ المعاصر له (١٤٠) . أما كلاوديو جيين Claudio Guillén فقد كان أكثر دقة فيما سجله من آراء في مقاله الشهير « الأدب كتناقض تاريخي - ابن سراج رواية موريسكية » فقد اعتبر هذا الأدب أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال إذ هو وصف ضمنى لدى البؤس الذي كان شائعاً في ذلك العصر ، ويعتقد أن رواية « ابن سراج » هذه ما هي إلا تعبير عن الرغبة في التعايش السلمي والابتعاد عن الحروب الدينية والنزاعات العرقية (١٤١) ، وتوافقه في هذا الرأي الباحثة ماريا سوليداد كراسكو (١٤٢) .

وقبل أن نختم الحديث عن هذه الرواية أود أن أذكر بدوري رأيا فيما يتعلق بهذه القصة « قصة ابن سراج » التي كتبت عقب سقوط غرناطة بحوالي سبعين عاما عندما كان الموريسكيون وهم في صميم محنتهم يتعرضون لأقسى أنواع التعذيب والبطش والتنكيل ، وفي تصوري أن الصورة الطيبة للمسلم التي عبر عنها كاتب هذه الرواية ربما كانت نوعا من الاسقاط النفسي ، وكأن الأسباني المسيحي يريد أن يرى نفسه بعيدا عن كراهيته وتعصبه ، يريد أن يشعر ذاته بأنه أولا وأخيرا إنسان ، يسعى إلى دفع الظلم وإقامة العدل حتى ولو كان هذا السلوك الإنساني العادل على الورق فحسب وفي الروايات والقصص بمعنى أن هذا الموقف المعتدل تجاه الإسلام ربما كان رد فعل لضمير الإنسان الأسباني إزاء المسلم المضطهد أو مجرد صحة للضمير المسيحي الديني في نفسه فالمسيحية دين السلام ، تكره العنف وترفض سفك الدماء . وقد يكون نوعا من التعمية لايهام الأجيال المقبلة بالحرص على التسامح وتطبيق العدالة وهو في الواقع قناع زائف يخفي الوجه القبيح للحكم الأسباني في ذلك العصر ، ورغبة من الكاتب في تجميل صورة الواقع المسخ أمام التاريخ ، وفي نفس الوقت لا أتفق مع كلاوديو جيين وماريا كراسكو في أن الغرض من التعاطف مع المسلم في هذه الرواية تم بدافع الرغبة في التعايش السلمي ، واستشهد بما ذكره كل من المؤرخ الأسباني

Marcelino M. Pelayo, «Orígenes de la novela», t. I, CSIC, Santander, (١٣٩) 1943, pp. CCC-LXXXVI.

(١٤٠) لوثي لوبات بارالت ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(١٤١) نفسه ، ص ٥٠ .

(١٤٢) نفسه ، ص ٥١ -

María Soledad Carrasco, «The moorish novel "abencerraje"», and Pérez de Hita, Twayne publishers, Boston, 1976.

(١٤٣) أنطونيو دومينغيز هورتز ، برنارد بنثنت ، الموريسكيون ، ص ٢٠ ، ٢١ .

**أنطونيو دومينغيز هورثيث والفرنسي برنارد بنثنت** في كتابهما « الموريسكيون حياة ومأساة أقلية » تحت عنوان نهاية زمن التعايش السلمى « كان المسلم والنصراني يتعايشان منذ زمن طويل في اسبانيا ، وكان كل واحد منهما سيداً على أرضه ويتعامل مع الآخر المثل بالمثل . ولكن منذ الثانى من يناير عام ١٤٩٢م وهو تاريخ دخول الملكين الكاثوليكين غرناطة ، أصبح المسلم في أى مكان من اسبانيا مهزوما ، وإن كان الظاهر من الناحية القانونية ما زال يتمتع بنفس حقوق المواطنة ، لكنه في الحياة الواقعية العامة بدأ ضغط وقهر المنتصرين يشدد يوما بعد يوم حتى وصل الى التفكير بانتهاء وجود الأقلية . أما النصوص القانونية التى عكست بتسامحها ميراث المعاشة السلمية والاحترام المتبادل فقد انتهكت يوما بعد يوم ... » (١٤٣) .

لقد عبر هذان **المؤرخان** برأيهما في قصة « ابن سراج والحسناء شريفة » ونظرة التعاطف التى وردت في ثناياها تجاه المسلمين بقولهما « أن التفاهم والتعاطف نحو العالم الموريسكى كان ميراث لأقلية مثقفة جدا ومحدودة العدد ... يجب أن نتوقف عن استخراج نتائج مبالغ فيها من هذه الظاهرة الأدبية ، فبين المسلمين المقدمين بصورة مثالية في العصور الوسطى وبين الموريسكيين المطاردين في القرن السادس عشر يوجد تلك الهوة التى تفصل بين المثالية الخالصة وبين الحقيقة الصماء ( الوضع الاجتماعى ) السيء ، أن فرأى لويس دى ليون أحد كبار الرهبان له انتاج أدبى هام كما يعتبر من أهم رجال التصوف المسيحى الذى مدح العالم المسلم ، كان يحس بعداوة ليس لها حدود نحو الموريسكيين كما أوضح ذلك أזורين ... أن محاولات الدفاع التى أظهرتها بعض المدن في صالح الموريسكيين ولتجنب طردهم كان سببها الخوف من الأضرار الاقتصادية التى سيعانون منها أكثر من كونه مدفوعا بمشاعر ... وإذا استثنينا بعض الحالات الخاصة جدا فإن مشاعر الكراهية والمقت كانت عامة ، وفي القرى مختلطة السكان فإن الوشاية والاسهتزاء والنكسات السخيفة كانت جزءاً من الحياة اليومية ... » (١٤٤) .

ولسنا بصدد التعمق في دراسات أدبية ، وكل ما نريد استخلاصه من رواية ابن سراج تاريخيا هو **الحقائق التاريخية التالية** :

١ - تدلنا الرواية بالدليل القاطع على اخلاص بنى سراج لدينهم وتمسكهم بعقيدتهم بعد سقوط غرناطة بدليل ما ورد في هذه القصة الشعبية عن الفارس

(١٤٤) المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

المسلم « ابن سراج » مما يؤكد عظمة هذه الأسرة واحتفاظها بهويتها الاسلامية بعكس أسرة بينغش مثلا Los Venegas التى ارتدت عن الاسلام بعد سقوط غرناطة وتأتى الأحداث التاريخية التالية مؤيدة لما ورد فى هذه الرواية الشعبية ففى عام ١٥٦٧/١٥٦٨م هب الموريسكيون فى غرناطة والبشرات فى ثورة عارمة تزعمها أحد أبناء هذه الأسرة الشريفة وهو فرج بن فرج بن سراج كما سبق أن ذكرنا ، غير أن دينه ووطنه وهويته .

٢ - تؤكد الرواية على حقيقة تاريخية أخرى وهى بقاء جزء كبير من أسرة بنى سراج فى الاندلس بعد سقوط غرناطة بدليل اقامة ابن سراج بطل هذه الرواية بالقرب من غرناطة وزواجه من شريفة الفتاة المسلمة وعودته معها الى بلدهما بعد أن عفا عنهما القائد المسيحى ، وهذه الرواية تنفى بذلك فكرة رحيل بنى سراج بأجمعهم الى تونس أو المغرب وهذا يتناقض مع ما ذكرته راشيل آرييه (\*) ويؤكد رأى هذا قيام فرج بن فرج من بنى سراج بثورته فى القرن ١٦م .

٣ - يؤكد اختيار كاتب هذه الرواية لأحد أفراد بنى سراج بطلا لروايته ورمزاً للوفاء بالعهد والحفاظ على شرف الكلمة ورد الاحسان لصاحبه ، دون أى شاب آخر من الأسرات الموريسكية التى تبقت فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة على علو مكانة بنى سراج ورفعة شأنهم واحترامهم بين الناس مسلمين كانوا أم مسيحيين .

( ٣ )

### كتاب « الحروب الأهلية فى غرناطة »

#### Guerras Civiles de Granada

ومؤلف هذا الكتاب هو خينيث بيريث دى هيتا Gines Perez de Hita صدر كتابه فى القرن السادس عشر الميلادى . وبيريث دى هيتا اسباني . وتذكر Paula Blanchard-Demouge (١٤٥) أنها لا تعرف على وجه التحديد مكان

(\*) تذكر راشيل آرييه أن بنى سراج قد باعوا للسلطان أبى عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة أملاكه التى كان يملكها فى غرناطة ثم لحقوا به فقد كرهوا أن يعيشوا فى اسبانيا فهاجروا جميعا الى المغرب سنة ١٤٩٣ م ( Rachel Arié, «Le Royaume», p. 159 ) (١٤٥) هى التى قامت بنشر الرواية وقدمت لها سنة ١٩١٣ ، وقد طبعت هذه الرواية عدة طبعات وقد رجعنا فى هذا البحث الى طبعتين احدهما طبعة سنة ١٩١٣ والاخرى حديثة وهى طبعة مدريد ١٩٧٥ .

مولده الحقيقي ولكنها ترجح أنه ولد في مرسية لوجود وثائق تعميد باسم شخص يدعى Ginez Perez في نفس الفترة الزمنية التي عاش فيها مؤلفنا في كنيسة سان ميغيل دي مولا ، ولم تحدد الوثيقة يوم مولده أو أسماء الآباء الذين قاموا بتعميده ولا اسم والديه . وبعد سلسلة من التساؤلات ، ترجح باولا بلانشار أن خينيث بيريس دي هيتا ولد في مرسية سنة ١٥٤٤م (١٤٦) .

وكانت تربط دي هيتا صلات شخصية ببعض ذراري أسرات مورييسكية كانت تقيم في ذلك الحين في منازل أجدادهم ، رويوا له التاريخ الاسلامي وعرفوه على تقاليدهم مع الاهتمام بذكر النتائج السيئة لهزيمة بنى نصر (١٤٧) . ويزعم دي هيتا أنه عثر على كتاب لمؤلف عربي يدعى ابن أمين ، فيه مزيج من الوقائع التاريخية المحرفة وكثير من القصص الخرافية ، وأنه قام بترجمته الى اللغة الاسبانية (١٤٨) . وتعلق باولا بلانشار Paula Blanchard في معرض حديثها عن أهم المصادر التي استقى منها دي هيتا De Hita مادة كتابه بأنه لم يرجع الى المؤرخ المسلم ابن أمين وحده وانما رجع الى شخص آخر اسمه ابن أحطين Aben Ahatin ، وهي ترجح أنه هو نفسه ابن الخطيب (١٤٩) .

ويعلق البعض على هذا الزعم بأن دي هيتا يهدف بذلك اضعاف الواقعية على كتابته ، وان هذا الادعاء ليس سوى حيلة طالما استخدمها الكتاب الاسبان حتى يكتبوا ما يريدونه عن الاسلام والمسلمين دون حرج بحجة أن المصدر الذي استقى منه مادته مسلما (١٥٠) .

وكتاب بيريث دي هيتا أو روايته عن حروب غرناطة يتضمن موضوعات شتى عن تأسيس مدينة غرناطة وعن ملوكها المسلمين كما يفصل في ذكر حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية وبلاطها ، وما كان يقع فيه من دسائس ومؤامرات . وفي نطاق ذلك يرد ذكر بنى سراج كثيرا خاصة عند حديثه عن

(١٤٦) Ginés Pérez de Hita, «Guerras civiles de Granada», p.I, pub. Paula Blanchard-Demaugé, Madrid, 1913, pp. 8-30.

(١٤٧) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 159.

(١٤٨) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٠٣ - جمال عبد الرحمن ، صدى سقوط غرناطة ، ص ١٩٧ .

Ginés Pérez de Hita, «Guerras civiles de Granada», Madrid, 1913, p. 30. Rachel Arié, «Le Royaume», p. 159.

(١٤٩) De Hita, op. cit., pp. 30-31.

ولكننا لا نميل الى الأخذ بهذا الرأي لأن ابن الخطيب لم يكن معاصرا للفترة الاخيرة من مملكة غرناطة زمن السلطان الأخير أبي عبد الله محمد اللهم الا اذا كان قد اعتمد عليه كمصدر فيما يتعلق بالفترة الاولى من تاريخ مملكة غرناطة التي عاصرها ابن الخطيب .  
(١٥٠) جمال عبد الرحمن ، صدى سقوط غرناطة ، ص ١٩٧ .

الاحتفالات التي كانت تقام بغرناطة في عصر بني نصر ، فقد كان فرسان غرناطة وعلى رأسهم بنو سراج يلتمسون اعجاب السيدات فكانوا يخرجون كأبطال أسطوريين مزينين ليحفظوا باعجاب النساء وتصفيقهن لهم . وكانت تلك الاحتفالات تعقد عند باب الرملة من أبواب غرناطة (١٥١) . كذلك ورد ذكرهم عند حديثه عن اضطراب الظروف السياسية في المملكة وعن صراعاتهم مع بني الثغرى وغيرهم من أنجاد غرناطة .

ويذكر دى هيتا أن الثغريين Zegris هو اسم محرف من ثغرى أى المقيم على الحدود للجهاد (١٥٢) . وتعلق Rachel Arié على ما أورده دى هيتا في هذا الصدد بقولها « يتصور بيريث دى هيتا قيام خصومة حقيقية بين بني سراج الذى وصفهم وصفا رائعا كفرسان خيرين وبين الثغريين ، الاسم المحرف من ثغرى أى المقيم على الحدود للجهاد . ومعنى ذلك أن الأجناد الثغرية الافريقية التي كانت في خدمة سلاطين غرناطة قد توقفوا عن أداء دور سياسى في غرناطة في الثلث الأخير من القرن ١٤م ، ولم تستطع على الإطلاق الدخول في نزاع مع أسرة بني سراج التي ظهر نفوذها منذ عام ١٤١٩ ... » (١٥٣) .

وقد اهتم دى هيتا بابرار أهم مراحل وأدوار هذا الصراع المرير ، وكان الجزء الأول من روايته قد ظهر في سرقسطة سنة ١٥٩٥م بعنوان « تاريخ الثغريين وبني سراج فرسان غرناطة المسلمين » Historia de los vados de Zegriés y Abencerrajes Caballeros moros de Granada .

ثم طبع القسم الثانى سنة ١٦١٩م ولم يكن لهذا القسم علاقة كبيرة بالقسم الأول (١٥٤) . ومن مظاهر هذا الصراع كما ورد في كتاب دى هيتا ما أشار اليه من قيام قتال بين الثغريين ( الذين وصفهم دى هيتا بأنهم فرسان شجعان ولكنهم يتسمون بالغيرة والحقد ) وبين بني سراج ، ويقول دى هيتا في هذا الاطار :

« ونجح أحد فرسان بني سراج من طعن أحد الثغريين وحضر عشرون من بني الثغرى الذين أمسكوا بالأسلحة فهب بنو سراج للدفاع عن أنفسهم ، وانضم الى الثغريين بعض الفرسان من حلفائهم وكان عددهم نحو عشرين رجلا ، وكانت حصيلة المعركة أن مات خمسة من الثغريين وخمسة من حلفائهم أما بنو سراج فلم يقتل منهم أحد في حين جرح حوالى عشرة وقد قطع ذراع أحدهم... » (١٥٥) .

(١٥١) De Hita, «Guerras civiles», Madrid, 1913, p. 78. Rachel Arié, «Le Royaume», pp. 159-160.

(١٥٢) De Hita, «Guerras civiles», Madrid, 1913, p. 135.

(١٥٣) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 159.

Ibid. ١٥٤)

(١٥٥) De Hita, «Guerras civiles», Madrid, 1913, p. 135.

ويروى بيريث دى هيتا أن السلطان أبا عبد الله محمد ( بو عابديل ) هو الذى نكب بنى سراج بعد أن صور له الثغريون أعداء بنى سراج بأنهم يدبرون مؤامرة للإطاحة بعرشه ، لذلك انتقم أبو عبد الله من أقوى وأبرز شخصية من هذه الأسرة ، وهى شخصية ابن حامد Aben Hamet . ويستطرد دى هيتا ذاكراً أن أبا عبد الله تحايل على استقدام بنى سراج فى كمين نصبه لهم فى بهو السباع ، وكان أول ضحايا هذا الكمين هو ابن حامد ، قتل فى بيلة ضخمة من الرخام en una taza de alabastro muy grande واعقب ذلك مقتل ستة وثلاثين من بنى سراج فى نفس البهو ، قتلهم رجال كلفهم السلطان بذلك . ويؤكد بيريث دى هيتا أن السلطان أبا عبد الله أصدر بعد ذلك مرسوماً ببنى بنى سراج الذين نبذوا الاسلام واعتنقوا المسيحية فور التجائهم الى قشتالة (١٥٦) . ونلاحظ هنا تأثير بيريث دى هيتا الى حد كبير بما ورد فى قصيدة «آه يا حامتى» خاصة عند ما وردت عبارة « بنى سراج هم زهرة غرناطة » كذلك نلاحظ أن بيريث دى هيتا قد جانبه الصواب عندما اعتبر أن قاتل بنى سراج هو أبو عبد الله محمد فقد خلط بين هذا السلطان وبين أبيه مولاى أبى الحسن (١٥٧) ولا شك أن واشنطن ايرفينج قد اعتمد على رواية دى هيتا الخاطئة كما سبق أن ذكرنا فقد اعتبر مثله أن أبا عبد الله هو المتسبب فى نكبة بنى سراج وعلى هذا الأساس فنحن لا نوافق دى هيتا فيما يتعلق بتنصر بنى سراج وقد أوضحنا فى النقطة السابقة رأينا مفصلاً فيما يتعلق بهذا الموضوع .

وتتساءل راشيل أرييه عن السبب الذى دعا بيريث دى هيتا الى اختيار قاعة تحمل اسم بنى سراج حتى اليوم لتكون مسرحاً لمذبحة بنى سراج المشهورة ؟ ؟ وتجيب قائلة « مما لا شك فيه أنه كان على دراية بما كان يجرى فى هذه القاعة الرائعة من وقائع مأساوية مشابهة لنكبة بنى سراج طوال عصر بنى الأحمر » (١٥٨) ، وهى فى نفس الوقت تتشكك فى واقعية ما أورده دى هيتا بشأن الصراع الدامى بين الثغريين وبنى سراج وتقول « لو أن بنى سراج كان لهم خصوم فإنهم على الأقل سيتركزون فيمن عرفوا باسم Les Venegas وهى أسرة من البلاط النصرى وتتساءل لماذا اختار بيريث دى هيتا الثغريين ليكونوا خصوماً لبنى سراج مع أنهم ( أى الثغريين ) لم يرد ذكرهم كثيراً فى المصادر العربية والقشتالية ... » (١٥٩) .

---

Ibid, p. 170. (١٥٦)

Rachel Arié, «Le Royaume», p. 160. (١٥٧)

Ibid, p. 160. (١٥٨)

Ibid, p. 160. (١٥٩)



وعلى أية حال فإن ما رواه دى هيتا يعبر عن مدى ما كان لبنى سراج من عظمة ومكانة بحيث أنهم سيطروا وتفوقوا على كل الأسرات الغرناطية الكبيرة في ذلك العصر . ويختلف الباحثون حول تقييم رواية بيريث دى هيتا وانقسموا الى فريقين . أما الفريق الأول فيرى أن رواية « الحروب الأهلية في غرناطة » ليست سوى نموذج يعبر عن روح التعصب الاسبانية ضد الموريسكيين ، فدى هيتا عندما أوجز تاريخ ملوك غرناطة المسلمين ذكر أنهم كلهم ماتوا على أيدي مسلمين مثلهم اما بالسم أو بالقتل أو بالخيانة ، والمسلم كما صورته دى هيتا في بعض المواضع من روايته انسان يحب المال وطبيعته الغدر (١٦٠) ، كذلك أبرز بعض الصفات السلبية عند المسلمين فهو يصور المسلمين في أشنع صورة ، فلم يكن يشغلهم في رأيه سوى الحب والخيانة ، فاذا كانت فاطمة على حد قول دى هيتا تحب موسى فإن موسى يحب دراجة ، ودراجة تحب ابن عمار،،،(١٦١) الخ. كما أن المسلمين قد عرفوا بالجبن فاذا تعرض فارس مسلم يسير مع أخته لهجوم بعض المسيحيين بقصد التهجم عليها فانه يتركها لهم ويفر هاربا (١٦٢) ، ويرى دى هيتا أن المسلمين اذا كانوا قد وصلوا الى هذا المستوى الأخلاقي المتدنى ، فإن دينهم هو وحده المسؤول عن ذلك .

ويعلق أنصار هذا الفريق بأن بيريث دى هيتا بذلك التعصب ضد المسلمين قد مهد الطريق لتتحول روايته الى أدب تبشيري فهو عندما يشير الى مثالب المسلمين ويعدد من محاسن المسيحيين يؤكد على أن هذا انما هو رأى المؤرخ المسلم ابن أمين نفسه . ويؤكد د. جمال عبد الرحمن أن دى هيتا عندما تعرض لذكر ثورة الموريسكيين بعد سقوط غرناطة في أيدي الملكين الكاثوليكيين ، قد أشار الى أن الأحداث قد رواها له قائد مسيحي ، ويعترف بأنه شاهد بعض هذه الوقائع بنفسه ثم يزداد تهجمه على المسلمين لدرجة أنه يبتعد عن لغة الأدب الرفيع ، كما أنه حاول أن يفرق بين العقيدة المسيحية والهوية الاسبانية ، فالاسباني في رأى دى هيتا يجب أن يكون مسيحيا ويذكر في روايته أن مسلما تحدى اسبانيا وكان المسلم ليس اسبانيا (١٦٣) ، ويذكر مثالا آخر أورده دى هيتا عن شاعر مسلم من جاليرا يناجى بلده في قصيدة شعرية قائلا : حماك الله من الاسبان الذين يريدون أن يغزوك ، ويشير دى هيتا الى أن الشاعر قد ذكر في القصيدة أن أجداده غرباء عن اسبانيا التي حكموها قرابة ألف عام (١٦٤) ،

(١٦٠) Pérez de Hita, «Guerras civiles de Granada», Madrid, 1975, pp. 22-23.

(١٦١) Ibid, p. 73. وفي طبعة مدريد ١٩١٣ في ص ٧٦ .

(١٦٢) Pérez de Hita, «Guerras civiles de Granada», Madrid, 1975, p. 58.

(١٦٣) Ibid, p. 160.

(١٦٤) Ibid, p. 199.

وفي نهاية روايته يصف دى هيتا المسلمين بأنهم يتصفون بالغدر والخيانة (١٦٥). أما الفريق الثاني ويضم الدكتورة لوثي لوباث بارالت و الدكتورة راشيل أرييه والباحثة الشهيرة ماريا سوليداد كراسكو ، فيرون أن بيريث دى هيتا قد نحى التعصب والتحيز لبنى جلده جانبا فأخذ يناصر بنو سراج ويمجد صورتهم وهم من المسلمين ، فأبرزهم في أحسن مظهر وأفخم لباس وأجمل سلاح كما فصل في وصف اخلاقياتهم وفروسياتهم النبيلة (١٦٦) .

واختتم دراستي لرواية « دى هيتا » بتعليق شخصي على تلك الرواية وعلى مؤلفها فالمؤلف يخلط في دراسته مجموعة من القصص الخرافية التي تتداخل فيها أسماء عربية أعتقد أن جزءاً كبيراً منها مختلفاً مع بعض الوقائع التاريخية المحرفة ، أما دى هيتا نفسه فقد صور الفرسان المسلمين في غرناطة بأنهم لا هم لهم الا الحب والمنافسة على المحبوبات الى حد الصراع الدامي وحتى نكبة بنى سراج التي ذكر أنها حدثت في عهد السلطان الأخير أبى عبد الله محمد ، فقد اختلق لها دى هيتا سببا مدنيا وهو حب السلطنة غير الشرعى لابن حامد من بنى سراج (١٦٧) .

لقد حاول دى هيتا تصوير المجتمع الاسلامي في غرناطة بانه كان مجتمعا خاويا زائفا يعيش أفراده في حب وسعادة ومتعة وهو بذلك قد جرد هذا المجتمع من مقوماته الحقيقية ، وحتى عند ما أسرف في وصف محاسن بنى سراج ونسبهم نسباً طيباً ، فقد ذكر فيما بين سطور كتابه كما سبق أن ذكرت ، أن بنى سراج قد ارتدوا عن الاسلام وتنصروا بعد نكبتهم ، وهذا الرأي سبق لي أن ناقشته في الصفحات الماضية وأثبت عدم صحته وقد أورد دى هيتا فيما بعد أمثلة عديدة تشير الى تنصر بنى سراج وميلهم للنصارى فقد ذكر أن بنى سراج كانوا يعطون الصدقات للمسيحيين فلما تعرضوا للمساءلة من أقرانهم المسلمين رد

(١٦٥) جمال عبد الرحمن ، صدى سقوط غرناطة ، ص ٢٠٠

(١٦٦) لوثي لوباث بارالت ، اثر الاسلام ، ص ٥٠ - ٥١

Rachel Arié, «Le Royaume», pp. 159-160.

وتذكر ماريا سوليداد كراسكو أن ظاهرة تمجيد العرب في الأدب الاسباني في كل من رواية «ابن سراج» وفي «الحروب الأهلية بغرناطة» لدى هيتا ، كانت ترمى الى الرفع من شأن الفئة المسلمة المضطهدة وبعث روح الوفاق والتصالح بين المسلمين والاسبان ، وتدلل ماريا سوليداد كراسكو على رأيها بأن بيريث دى هيتا قد أهدى الجزء الثاني من كتابه «الحروب الأهلية» الى أحد النبلاء «دون اللفانتادو» Duque del Infantado الذي ناضل من أجل حماية المدجنين في مرسية (ارجع الى

María Soledad Carrasco, «The Moorish Novel "el Abencerraje"», and Pérez de Hita, Boston, 1976.

لوثي لوباث بارالت ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

Rachel Arié, «Le Royaume», p. 160. (١٦٧)

فارس من بنى سراج قائلا « نعم نفعل ذلك فى حب الله ونعطى الصدقة للمحتاج سواء كان مسلما أو مسيحيا،،،» ثم أعقب دى هيتا هذا الرد بعبارة يقول أن ابن سراج ذكرها «لأن المسيحيين أيضا يعطون الصدقات لفقراء المسلمين...» (١٦٨). فدى هيتا عندما حاول اظهار موضوعيته وحياديته وتعاطفه مع بعض الفرسان المسلمين ، اختار بنى سراج ، وهو بذلك يكون قد ربط بين مثالياتهم وبين تنصرهم وارتدادهم عن الاسلام ، وذلك بلاشك يحمل التعصب الشديد المقنع ضد الاسلام والمسلمين ، لذلك فنحن نميل الى الأخذ برأى الفريق الأول فيما يتعلق بنقد تلك الرواية الاسبانية .

( ٤ )

### قصة « آخر بنى سراج » للفيكونت دوشاتويريان

تحول بنو سراج فرسان غرناطة وأشهر انجاءها بفضل الروائيتين السابقتين «ابن سراج» و «حروب أهلية» الى ما يشبه الأسطورة ، وأصبحوا مصدر الهام ووحى لكثير من الكتابات الغربية الأوروبية منذ القرن السادس عشر الى حد أننا نجد تاريخ ابن درايث من بنى سراج مسجلا فى أشعار الرومانسيرو الموريسكى دى تيمونيدا De Timoneda وكذلك لوكاس رودريجت Lucas Rodriguez ثم اصطنعه لوبى دى بيجا Lope de Vega فى عمله El remedio en la desdicha . لقد حظيت رواية بيريث دى هيتا على وجه الخصوص بنجاح عظيم فى اسبانيا فكان لها ما يقرب من تسع وثلاثين طبعة جديدة حتى نهاية القرن السابع عشر حتى بعد أن أثارت رواية «دون كيشوت» التى ألفها ثرفانتس Cervantes السخرية من روايات الفروسية .

وفى منتصف القرن الثامن عشر مثلت على المسرح الاسبانى قصة غير معروفة المؤلف عنوانها «موت بنى سراج والشريفة المفضوحة» . كما تابع الايطالى خيرولامو جراتزيانى عن قرب رواية بيريث دى هيتا المتعلقة بمصرع بنى سراج فنظم قصيدة ملحمية عنوانها فتح غرناطة il conquisto di Granata وفى فرنسا أيضا انتشرت أسطورة بنى سراج واشتهرت كذلك قصة ابن درايث وشريفة المسلمة ، بين رجال الأدب منذ طليعة القرن ١٧ م. بفضل الترجمة الفرنسية لديانا دى منتميور Diana De Montemayor .

وفي سنة ١٦٨٣ م ترجمت رواية بيريث دى هيتا للمرة الثانية على يد الأنسة De la Roche Guilhen ، كما اتخذ الأدب الفرنسى فى صالون مدام دى رمبوييه Madame De Rambouillet من التقاليد الرفيعة التى عالجه دى هيتا بغرناطة الاسلامية انموذجاً . وتسمى فانتازيا Vincent Voiture الذى كان شديد الاعجاب بالرومانثيرو المرسى باسم الملك الصغير el Rey chiquito كما زعم الشاعر اسحق دى سراد أنه أحد أبناء أسرة بنى سراج .

وصدرت فى عام ١٦٦٠ م أول رواية مستوحاة من الاندلس فى فرنسا . وفى سنة ١٦٧٠ م صدرت رواية أخرى على نسق رواية دى هيتا اسمها «فتوح الاسبان لغرناطة» لجون ديدن John Dyden ، وطبعت سنة ١٦٧٢ م وفيها نشهد الصراع طويل الأمد بين بنى سراج والتغريين .

وفى ختام هذه الجولة الطويلة نشهد فى بداية القرن ١٩ رواية عن مأساة بنى سراج سجلها الكاتب الفرنسى الشهير الفيكونت شاتوبريان ، وقد ظهرت روايته هذه فى سنة ١٨٢٦ م ونجد أن وقائعها تدور بعد سقوط غرناطة بثلاثين سنة تقريبا (١٦٩) .

وبطل قصة شاتوبريان هو الفارس «ابن حامد» من بنى السراج وهو ابن الفارس السراجى «ابن حامد» ( على حد قول شاتوبريان ) الذى اتهمه بنو التغرى بعشق السلطنة وهو ما تسبب فى نكبة بنى سراج كما ورد فى رواية دى هيتا .

وكان البطل ابن حامد يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما عندما قرر الرحيل من تونس ( حيث يشير شاتوبريان أن بنى سراج قد استقروا بها ) الى اسبانيا لزيارة بلاد أجداده فأبحر من تونس حتى وصل قرطاجنة الاندلس ، ومن هناك توجه الى غرناطة وهناك فى غرناطة التقى ابن حامد ، بفتاة اسبانية حسنة ، اسمها أدماء هام بها حباً وسمعها ذات يوم تغنى زجلا قشتاليا فى تاريخ بنى سراج وبنى التغرى (١٧٠) . ويذكر شاتوبريان فى قصته أن ابن حامد قد اكتشف أن حبيبته الاسبانية هى من سلالة آل بيغار الذى منهم السيد القنيطور بطل رواية الشاعر كورنايل «فاتح بلنسية» (١٧١) .

وقد تنزه الحبيبان فى قصر الحمراء ، وكان ذلك مجالا لأن يصف شاتوبران هذا القصر ويذكر شاتوبريان أن ابن حامد بن سراج قد عزم على التزوج بحبيبته

(١٦٩) Rachel Arié, «Le Royaume», pp. 161-163.

(١٧٠) شاتوبريان ، آخر بنى سراج ، ص ١٦

(١٧١) المرجع السابق ، ص ١٧

(١٧٢) يذكر الأمير شكيب أرسلان أن الأبيات للبحترى وأن فيها بعض ألفاظ توافق المقام (المرجع السابق ، ص ٥٨) .

أدماء ولكنها اشتراطت عليه ترك الاسلام فرفض ، وهنا نؤكد مرة أخرى أن الروايات والقصص الشعبية أثبتت الى جانب الوقائع التاريخية تمسك بنى سراج باسلامهم بخلاف ما أورده دى هيتا عن تنصرهم .

وإذا عدنا الى أحداث رواية شاتوبريان نجد أن كتابا يصل الى ابن حامد من تونس يعلمه بأن والدته على شفا الموت ، فودع ابن حامد محبوبته وعاد لرؤية والدته . وبعد فترة يرجع ابن حامد للأندلس وفي ذلك الوقت كان الفارس الاسباني الدون كارلوس شقيق أدماء محبوبية ابن سراج ، يصر على تزويجها من الفارس الفرنسى الشهير لوترك ، ولكن أدماء صممت على الارتباط بحبيبها ابن حامد بشرط أن يتنصر . ولما عرف ابن حامد أن أدماء هى من سلالة السيد عدو أجداده ، وعرف دون كارلوس أن ابن سراج هو آخر بنى سراج ، عدل ابن حامد عن فكرة زواج أدماء ، ورحل عائدا الى افريقية وانقطع خبره في حين بقيت أدماء بدون زواج متيمة بحبيبها العربى هائمة في أكثر الأحيان في جبال مالقة تنظر الى البحر الذى كان يأتى منه .

وينهى شاتوبريان قصته بتصوير مقبرة آخر فارس من بنى سراج في تونس بقوله «عند خروجك من تونس من الباب المؤدى الى أطلال قرطاجنة تجد مقبرة وتجد في زاوية تلك المقبرة شجرة نخل تحتها ضريح قد أرشدت اليه يقال له هناك قبر آخر بنى سراج ، ليس فيه شيء يستحق الوصف سوى أن في وسط حجر الضريح الأملس نقرة صغيرة محفورة حسب عادة مدافن المسلمين ...

وقد أورد بعض أبيات شعرية منها :

اقصر سراج لا عزاء لمفرم	ولا قصر عن دمع وان كان من دم
افى كل عام لا تزل مروعا	بفد نعى تارة أو بتوأم
مضى أهلك الأخيار الا أقلهم	وبادوا كما بادت أوائل جرهم

ومنها :

فكل له قبر غريب ببلدة	فمن منجد نائى الضريح وقتهم
قبور بأطراف البلاد كأنما	مواقعها منها مواقع أنجم
بتونس الخضراء قبر ابن حامد	بعيدا عن الباكين في كل مأتم (١٧٢)

الدكتورة سحر عبد العزيز سالم



## منشآت سلاطين بنى نصر فى قصور الحمراء

يعرف بنو نصر أيضا ببنى الأحمر وهم آخر ملوك دولة الاسلام فى الاندلس فى مراحلها الأخيرة ، وينتسبون الى محمد بن يوسف بن نصر (٦٣٥ - ٦٧١ هـ) (١٢٣٨ - ١٢٧٢ م) (١) الذى يرجع اليه الفضل الأعظم فى وضع أساس هذه السلطنة ولم شعث ما تبقى من مدن الاسلام بعد الموجة الضارية لحركة الاسترداد التى واكبت انهيار دولة الموحدين فى الاندلس ، وأطاحت بكيان دولة الاسلام بعد ضم معظم قواعده الرئيسية الى الممالك المسيحية فى اسبانيا ، وقد اتخذ محمد بن يوسف من مدينة غرناطة قاعدة لدولته ومقرا لسلطنته ، ولم تلبث هذه السلطنة رغم صغر مساحتها أن تألفت فى أيامه بفضل ما كان يتميز به من عقل وحكمة وحسن تدبير وما تلقاه من تأييد أهل الاندلس فعدوا عليه الأمل فى انقاذ ما بقى من دولة الاسلام من الخطر الذى كان يحيط بها (٢) .

ولقد حتمت الظروف السيئة التى مرت بها الاندلس آنذاك تأليف جبهة قوية أمام هذا الخطر المسمى الجاثم ، فعمد محمد بن نصر على توسيع رقعة مملكته فاستولى على العديد من المدن والقرى المحيطة بسلطنته ، ووفق ابن نصر فى ذلك

---

(١) محمد بن نصر : هو الغالب بالله أمير المسلمين الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر ابن قيس الخزرجى ، مؤسس الدولة النصرية ويصل نسب بنى نصر الى الصحابى سعد بن عباد الانصارى ، وكثيرا ما تغنى الشعراء بهذا النسب والعديد من الابيات الشعرية المنقوشة على جدران الحمراء تشير الى ذلك ، انظر :

- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٤ ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٧٠ .
- ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ ، ص ٣٣٠ .
- ابن الخطيب : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، ص ٣٣ ، ديوان ابن الخطيب ، ص ٥٣٢ .
- (٢) مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، ص ٣٨٤ .
- حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٣٨٤ .
- عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الاسلام فى الاندلس ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، ص ١٥ .

توفيقا كبيرا ، فقامت مملكة غرناطة بين مظاهر الاضطراب التي كانت تجتاح ما بقى من المدن الاسلامية في الاندلس ، وقدر لها أن تصمد نحو قرنين ونصف قرن من الزمان أمام العواصف العاتية والأنواء على الرغم من الصراع غير المتكافئ بين النصرانية والاسلام ، وما عانتته غرناطة من حروب داخلية (٣) .

وكان لزاما على محمد بن نصر أن يختار مقر سلطنته في موقع استراتيجي منيع، ووقع اختياره على معقل حصين يقع فوق القمة المعروفة بالسبيكة وأخذ في تعميره وترميم أسواره واقامة قسبة حصينة تحيط بها المتنزهات وكانت هذه القسبة النواة الاولى للقصور المعروفة بالحمراء والتي ترجع الى سلاطين بنى نصر (٤) . ونلاحظ عدم وجود صلة بين تسمية القصر بالحمراء وبنى الأحمر ، فتسمية القصر تسمية قديمة ترجع الى الفترة السابقة على عصر بنى نصر ، أما تسمية بنى الأحمر بهذا الاسم فترجع الى جدهم عقيل بن نصر الذى لقب بالأحمر لشقرة فيه ، وقد استمر هذا اللون يظهر في العديد من أفراد الأسرة (٥) .

والمجموعة الحالية لقصور الحمراء يرجع الفضل في انشائها الى بعض سلاطين بنى نصر أضاف كل منهم قصرا أو ابنتى مجلسا داخل برج من الأبراج تتقدمه بركة صناعية أو زود أحد القصور بصلح تتوسطه نافورة ، ويصف ابن الخطيب مدينة السلاطين التي تشتمل على قصور الحمراء المطلة على مدينة غرناطة بقوله : «مدينة الحمراء دار الملك مطلة على معمرها في سمت القبلة ، تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية والمعازل المنيعية والقصور الرفيعة ، تغشى العيون وتبهر العقول وتنددر من فضول مياهاها وأفياض حوائرها وبركها في سفحة جداول تسمع على البعد أهزاجها ، ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلقة ، والأدواح الملتفة فيصير من ذلك خلف سياج تلوح نجوم الشرفات

(٣) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٢٨٤ .

— يوسف شكرى : غرناطة في ظل بنى الأحمر ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) ابن الخطيب : اللحة البدرية ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

— Seco de Lucena: «El libro de la Alhambra» (historia de los sultanes de Granada). Madrid, 1978, p. 22. Grabsr: «The Alhambra», p. 35.

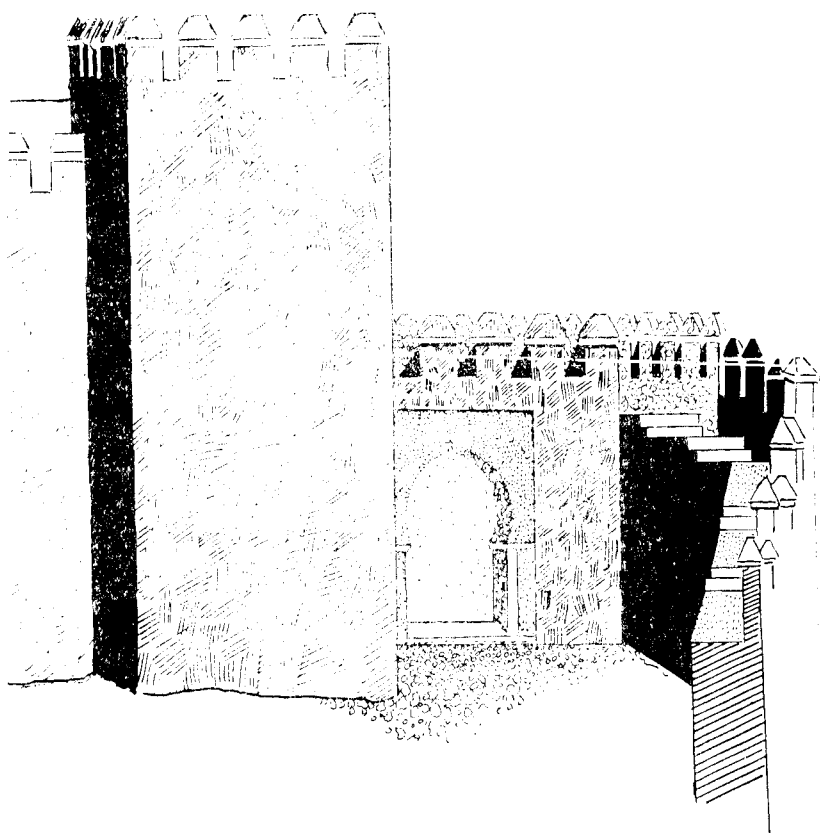
(٥) اتخذ ملوك بنى نصر من اللون الأحمر شعارا لهم في قصورهم بالحمراء وأعلامهم وقبابهم وخيامهم بل وفي لون الورق الذى يكتبون عليه رسائلهم السلطانية ، ووردت أمثلة لذلك في أشعار ابن الخطيب وابن زمرك .

— المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

— مختار العبادى : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٢٧٧ .

— Lafuente Alcántara: «Inscripciones árabes de Granada», p. 21.





المدخل الى قصور الحمراء



البيض أثناء خضرائه فلا تعرى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين» (٦) .

وينطبق وصف ابن الخطيب الدقيق على الأسوار والأبراج والبساتين المحيطة بالحمراء على الرغم من التعديلات العديدة التي تعرضت لها الحمراء بعد سقوطها في أيدي الملكين الكاثوليكيين ، وبالرغم من ذلك فما زالت القصور بتخطيطها الأصلي على أيام سلاطين بنى نصر .

والحمراء مدينة ملكية تتخذ شكل الحصن الذى يقام فى موقع مرتفع منيع يتميز بحصانته ، وهى فى ذلك تشبه الى حد كبير قلعة الجبل فى القاهرة ، وقلعة حلب فى بلاد الشام ، وهذا الطراز من المدن المحصنة أصبح الطابع المميز للعديد من المدن الإسلامية ابتداء من القرن الرابع الهجرى (٧) .

وتضم الحمراء عددا من الوحدات المعمارية بعضها قاعات ومجالس وبعضها أبهاء وبساتين تتخللها الجداول والبرك الصناعية خطط لها فوق تل السبيكة الذى عرف بهذا الاسم لتحويله الى اللون الذهبى عندما تسقط عليه أشعة الشمس (٨) .

وقد اتسعت الحمراء بما أضيف إليها من قصور وأبراج وقاعات ومرافق مختلفة ومتعددة الأغراض ، حتى أصبحت بحق مدينة ملكية تضم القصور والحمامات والمساجد السلطانية والمتنزهات وصهاريج المياه ، وتطوقها الأسوار والأبراج المحصنة (٩) .

وأقدم قصور بنى نصر التى أقيمت بالحمراء كانت من انشاء السلطان الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر ، الذى وضع النواة الاولى للأسوار والقصبة

(٦) ابن الخطيب : اللمة البدرية ، ص ٢٤ .

— ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ج ١ ، ص ٩٦ ، ٩٧ .  
ولمزيد من التفاصيل عن غرناطة فى عصر بنى نصر ، انظر :

— Mujtar al-Abbadi: «El reino de Granada en la época de Muhamad V». Madrid, 1973.

— Rachel Arié: «L'Espagne musulmane au temps des nasrides», Paris, 1973.

(٧) جرابار : العمارة ، مقال فى كتاب تراث الاسلام ، ترجمة حسين مؤنس سلسلة عالم المعرفة عدد ١١ ، الكويت ١٩٧٨ ، ص ٤٢ .

— Grabar: «The Alhambra», pp. 99-100.

(٨) ابن الخطيب : اللمة البدرية ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

— Torres Balbás: «La Alhambra», p. 3.

(٩) عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٦ ، ص ١٤٢ ، ٢٤٣ .

والقصور فوق القمة المعروفة «بالسبيكة» ثم تتابعت الزيادات في القصور والمجالس والقاعات على يد عدد من سلاطين بنى نصر شارك كل منهم بالاضافة والزيادة في انشاء مجموعة قصور الحمراء (١٠) .

ويمكننا أن نقسم مجموعة الأبنية المؤلفة لقصور الحمراء الى مجموعتين المجموعة الاولى وتنسب الى السلطان يوسف الاول (١١) (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) وتشمل باب الشريعة Puerta de la Justicia والحمامات السلطانية los baños ، وكذلك برج الأسيرة Torre de la Cautiva ومصلى البرطل El Partal وبرج أبى الحجاج Torre de Abulḥaṣṣāḥ وقاعة السفراء Salón de Embajadores والمجموعة الثانية وتنسب الى السلطان محمد الخامس الغنى بالله (١٢) ، وتضم مجموعة بهو الأسود أو السباع Sala de las Dos Hermanas الأخنتين الذى يضم قاعتي Sala de los Abencerrajes المتقابلتين ، بالاضافة الى قاعة الملوك Sala de los Mocarabes وقاعة المقرصات Sala de los Reyes بالاضافة الى النافورة التى تتخذ شكل قصعة مستديرة يحملها اثني عشر أسداً تمنح المياه من أفواهها ، ومن أبواب الحمراء باب النبيذ (١٣) Puerta del Vino

(١٠) Torres Balbás: «Ars hispanie», p. 84. Torres Balbás: «La Alhambra», p. 4.

— Grabar: «The Alhambra», p. 36.

Marçais: «L'Architecture musulmane d'Occident», p. 534.

(١١)

— Gallego y Burín: «Granada», p. 75.

سعد زغلول عبد الحميد : العمارة والفنون في دولة الاسلام ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٥٢٤ .

(١٢) محمد الخامس : هو الغنى بالله محمد بن يوسف الاول ولى الملك بعد أبيه ، وكان عفيف النفس مائلاً الى الخير ، محباً للعلم والعلماء كلف بأعمال العمران والبنيان وقد تولى الحكم مرتين ، المرة الاولى (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ) (١٣٥٤ - ١٣٥٩ م) ثم وقعت فتنة أبعدته عن حكمه ما يقرب من سنة ثم تولى الحكم مرة أخرى (٧٦٢ - ٧٩٤ هـ) (١٣٦١ - ١٣٩٢ م) ، انظر :

— ابن خلدون : ج ٧ ، ص ٣٣٢

— ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٢٦ ، ٢٧

— ابن الخطيب : اللوحة البديرة ، ص ١٢٠

— ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٣٥٢

— انظر أيضاً : دراسة د. مختار العبادي عن مملكة غرناطة في عصر محمد الخامس (باللغة الاسبانية) :

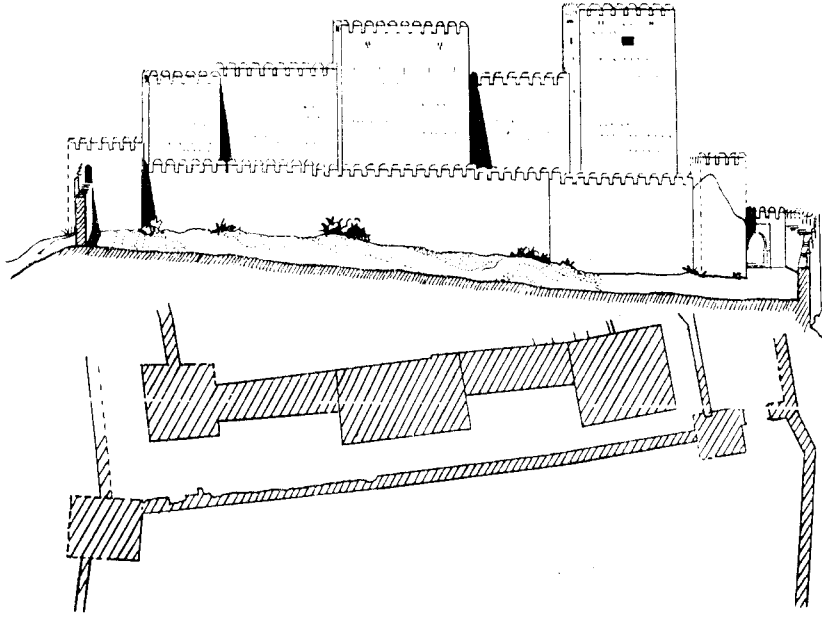
— Mujtar al-Abbadí: «El reino de Granada en la época de Muhamad V».

(١٣) عبد العزيز سالم : العمارة الاسلامية في الاندلس وتطورها ، مجلة علم الفكر ، المجلد

الثامن ، العدد الاول ، الكويت ١٩٧٧ ، ص ١٠٠ ، ١٠٥

— Torres Balbás: «La Alhambra», p. 20.

— Puertas: «Plano guía de la Alhambra», Madrid, 1977, p. 19.



الأسوار من الخارج



أما المجموعة الأخرى من القصور فترجع الى عدد من سلاطين بنى نصر ،  
ساهم كل منهم بالاضافة والتجديد والتعديل في قصور الحمراء ، فيرجع قصر  
البرطل El Partal الى السلطان محمد الثالث (١٤) (٧٠١ - ٧٠٨ هـ) (١٣٠٢ -  
١٣٠٨ م) وكذلك مسجد الحمراء ، ويرجع الفضل في انشاء قصر جنة العريف  
Generalife الى السلطان أبو الوليد اسماعيل (١٥) (٧١٣ - ٧٢٥ هـ) (١٣١٣ -  
١٣٢٤ م) ويرجع قصر أو برج الأميرات Torre de las Infantas الى السلطان  
محمد السابع ، كما أسهم سلاطين آخرون في الزيادة والتجديد بقصور الحمراء  
ببعض الاضافات في أبهاء القصور وبساتينها سواء بالبنين أو الزخرفة مما  
يصعب أحيانا تحديد وتمييز أعمال كل منهم عن الآخر (١٦) .

ونلاحظ أن معظم مسميات القاعات والأبهاء والأبراج ، ترجع في معظم الاحيان  
الى عصور حديثة وأغلبها من وضع الاسبان وترتبط في كثير من الاحيان بالروايات  
والقصص الأسطورية ، وكثيرا ما يطلق على القاعة الواحدة عدة مسميات ،  
فقاعة السفراء تسمى قاعة العرش ، ويطلق عليها أيضا قاعة قمارش أو قصر  
الريحان (١٧) .

(١٤) السلطان محمد الثالث : هو ثالث ملوك بنى نصر وابن السلطان محمد الثاني ، يكنى أبا  
عبد الله ويلقب بالملخوع ، تسلم أيام أبيه مسئوليات عديدة فتمرس على شئون الحكم وإدارة البلاد ،  
واستأنف خطى أبيه في الجهاد فزحف على المعقل القشتالية في جيان واحتل عدد من الحصون ، ولم  
يهنأ محمد الثالث بالحكم طويلا ، وقيل أنه خلع بتدبير من أخيه نصر الذي تولى الحكم من بعده ،  
انظر :

- تاريخ ابن خلدون ، ج ٧ ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠

- ابن الخطيب : اللمة البدرية ، ص ٧٠

— Seco de Lucena: «El libro de la Alhambra», p. 20.

(١٥) السلطان أبو الوليد اسماعيل : هو أبو الوليد اسماعيل بن فرح بن اسماعيل النصر ،  
خامس ملوك بنى الأحمر ، كان عفيف النفس ، لا يعاقر الخمر ويميل الى الصيد ، وقد بذل العدل في  
رعيته وأجتهد في الدفاع عن مملكته ، كما اشتهر على أهل البدع مختصرا الخوض في أمور الدين وله  
القول المعروف : أصول الدين عندى «قل هو الله أحد» وهذا «مشيرا الى سيفه» وله حروب وغزوات  
مع القشتاليين وزحف الى بعض المدن المسيحية ، وقد مات السلطان أبو الوليد قتيلا على يدى ابن  
عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة .

انظر :

- ابن الخطيب : اللمة البدرية ، ص ٧٨ ، ٩٩

- ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠

- المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٤٩

Puertas: «Plano guía», pp. 2-25.

— Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 85.

— Torres Balbás: «La Alhambra», p. 3.

Torres Balbás: «Ars hispaniae», p. 103.

— Puertas: «La fachada del Palacio de Comares», I. Granada, 1981.

— Pavón Maldonado: «Estudios sobre la Alhambra», pp. 66-70.

(١٦)

(١٧)

وقد اختلف العلماء حول اسم قمارش ، فنسبه بعضهم الى بعض الصناع من قرية قمارش الواقعة بالقرب من مالقة وشاركوا في بناء القاعة بينما يرى بعضهم الآخر أن تسمية القاعة ترجع الى جماعة من الحراس ينتسبون الى هذه القرية فسمى البرج باسمهم ، ويرى البعض الآخر أن كلمة قمارش تحريف لكلمة قمرية أى النوافذ التى يتسلل منها ضوء القمر والتى تتوفر بكثرة فى هذه القاعة (١٨) .

وقد استدل الأستاذ جرثيه جومث من نصوص قديمة معاصرة للوزير الغرناطى لسان الدين ابن الخطيب على المسميات القديمة لبعض الابراج والقاعات ، فقاعة الاختين كانت تسمى «المشور الجديد» تميزا لها عن المشور القديم الذى يقع حاليا بالقرب من مدخل القصر ، وبرج أبو الحجاج «أو برج مخدع الملكة» كان يسمى برج النصر (١٩) .

ويرجع الى السلطان أبى الحجاج يوسف الاول الفضل فى اقامة العديد من المنشآت المعمارية فى غرناطة ومناطق أخرى بجنوب الاندلس اشباعا لهوايته فى البناء والتشييد والعمران فهو الذى أنشأ المدرسة النصرية فى غرناطة فى عام ٧٥٠ هـ. على يدى حاجبه أبى النعيم رضوان (٢٠) وقد تعرضت المدرسة بعد سقوط غرناطة للتخريب وتغيرت معالمها الأصلية ولم يتبق منها الا جزء صغير من جدار القبلة ويحتفظ متحف الآثار الاقليمى بغرناطة ببقايا اللوحة التأسيسية التى تتضمن تاريخ انشاء المدرسة (٢١) .

واهتم يوسف الاول بتحصين مدن مملكته فأقام حصنا بالقرب من مدينة بسطة ذكره ابن الخطيب ، كما قام بتجديد بنيان حصن كان مقاما بجبل فاروة على مقربة من قصبة مالقة يشرف على البحر مباشرة ولا تزال بقايا أسواره وأبراجه قائمة حتى اليوم (٢٢) . وينسب اليه تجديد بناء أسوار ربض البيازين فى غرناطة

(١٨) Torres Balbás: «Ars hispaniae», p. 85.

— Puertas: «Plano guía», p. 14.

García Gómez: «Foco de antigua luz sobre la Alhambra». Madrid, 1988, (١٩) página 71.

(٢٠) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ج ٤ ، ص ٣١٨

— ابن الخطيب : اللمة البدرية فى الدولة النصرية ، ص ١٠٩

— المقرئ : نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٤٥٧

(٢١) Lévi-Provençal: «Inscriptiones», p. 159.

— Torres Balbás: «Ars hispaniae», p. 175.

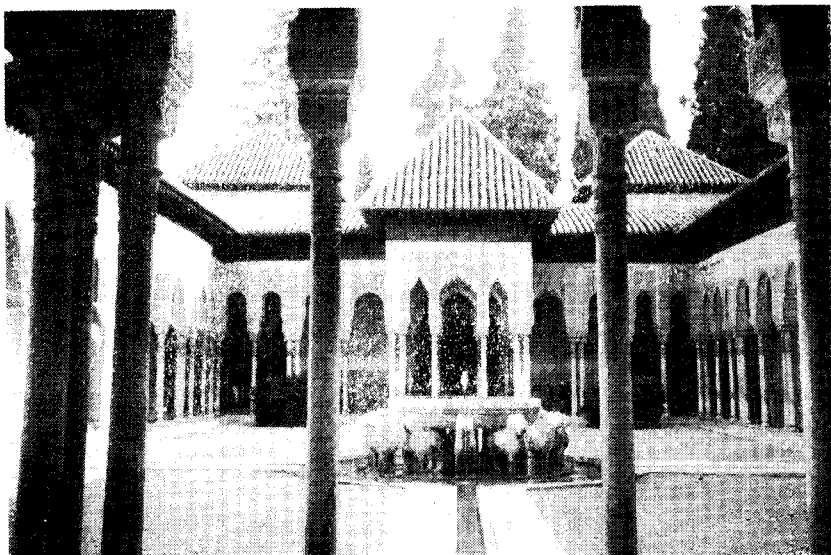
(٢٢) ابن الخطيب : اللمة البدرية ، ص ٩٦

— ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب فى المغرب والاندلس . تحقيق مختار العبادى ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، ص ٣١

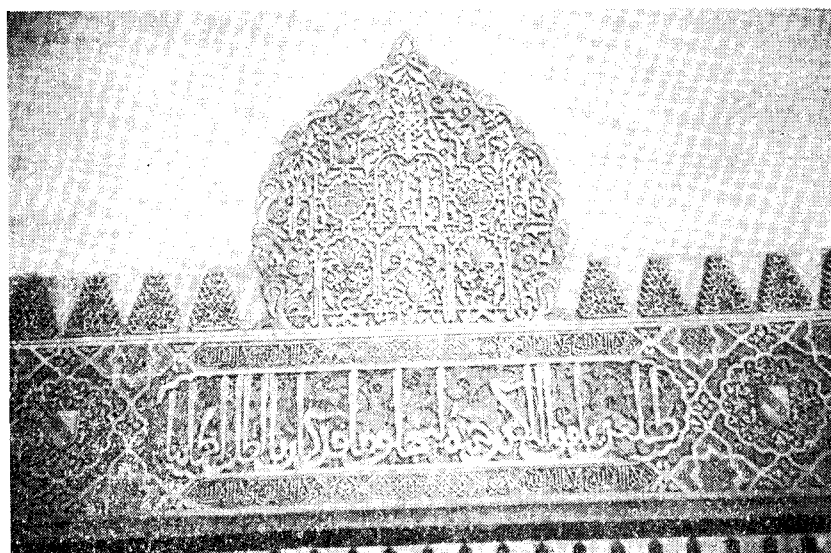
— Seco de Lucena: «El libro de la Alhambra», p. 38.

— Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 153 .





بهو الأسود ويرجع انشائه الى السلطان محمد الخامس



نقش كتابي من بهو الريحان



على يدى حاجبه أبى النعيم رضوان بالاضافة الى بعض التجديدات والزخرفة فى قصر شنيل الذى يطل على وادى شنيل فى الناحية الشمالية الشرقية من غرناطة (٢٣) .

كما تدين الحمراء بأجمل قصورها وبركها ونوافيرها للسلطان يوسف الاول فقد شيد أجمل القاعات والأبهاء التى تتميز بثرائها الزخرفى وتنوع عناصرها الزخرفية وتعاضم قيمتها الفنية والجمالية (٢٤) .

فالليه ينسب السور الحصين الذى يحيط بمرتفع الحمراء بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب الشريعة ويعلو مدخل هذا الباب نقش كتابى يتضمن تاريخ الانشاء واسم السلطان يوسف الاول الذى أمر ببنائه (٢٥) .

وينسب اليه أيضا بناء القصر الملكى الذى يتقدمه بهو الرياحن ويطلق على هذا القصر قاعة السفراء أو قاعة العرش ويستفاد من نقوش تلك القاعة أنها مخصصة للسلطان وفيها كان مجلسه الذى يستقبل فيه السفارات والزخارف الجدارية بهذه القاعة يعجز عنها الوصف ، وقوامها العناصر الهندسية والتوريقات النباتية والنقوش الكتابية المنقوشة فى الجص بألوان زاهية يغلب عليها اللون الذهبى ، وتطل هذه القاعة على بهو الرياحن ببائكة تتألف من سبعة عقود نصف دائرية العقد الأوسط منها أكثرها ارتفاعا تعلوها شبكة من المعينات (٢٦) وزودت قاعة السفراء بمنابر أو شرفات تطل على مرتفع البيازين الذى يفصله وادى حدره عن مرتفع الحمراء ، وتزدان كل منظره بقمرية يزدان عقداها التوأمان بزخارف رائعة تثير الإعجاب بجمال تكويناتها ودقة تنفيذها ، وتطل هذه المناظر على أخدود يجرى فيه وادى حدره بين أشجار كثيفة تكسو

(٢٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٥١٧

— Seco de Lucena: «El libro de la Alhambra», p. 38.

— Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 153.

(٢٤) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ج ٤ ، ص ٣١٨

— عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص ١٤٤

— García Gómez: «Foco de antigua luz», p. 23.

— Puertas: «Plano guía», p. 2.

Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 85.

— Marçais: «L'Architecture musulmane d'Occident», p. 534.

— Puertas: «Plano guía», p. 2.

— عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الاسلام فى الاندلس ، ص ٢٠٤

Torres Balbás: «La Alhambra», p. 16.

— Pavón Maldonado: «Estudios sobre la Alhambra», p. 66.

— Puertas: «Plano guía», p. 14.

— عبد العزيز سالم : العمارة الاسلامية فى الاندلس وتطورها ، ص ١٠٣

مدرجات الأخدود وتجعل منه لوحة فنية طبيعية بلغت الغاية في الروعة والجمال (٢٧) .

وينسب أيضا الى السلطان يوسف الاول الحمامات السلطانية الواقعة في الجبهة الشرقية من قاعة السفراء وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة تتضمن المدخل المنكسر والغرفة الباردة والغرفة الساخنة والموقد وتتضمن جدرانها نقوشا ترجع الى السلطان يوسف الاول وابنه محمد الغنى بالله ، وقد تعرضت تلك الحمامات لاصلاحات عديدة أجريت في القرن السادس عشر (٢٨) .

ويرجع أيضا الى السلطان يوسف الاول برج الاسيرة وهو أحد الابراج المحيطة بالقصور الملكية ويقع البرج في الجهة الشمالية الشرقية من قصور الحمراء ، والبرج وإن كان يبدو من الخارج حصنا عسكريا فهو قصر رائع من الداخل فتزدان جدرانه بالزخارف الجصية والنقوش الكتابية وتربيعات الزليج ، وما زال يحتفظ بنقوشه وزخارفه الأصلية حتى يومنا هذا على الرغم من بعض الاصلاحات التي تعرض لها البرج في أعقاب سقوط غرناطة (٢٩) .

وعلى مسافة غير بعيدة من برج الاسيرة من الجهة الشمالية يقع مصلى البرطل الذي شيده السلطان يوسف الاول ، وهو مصلى ملكي صغير المساحة مربع الشكل مازال يحتفظ بنقوشه وزخارفه الجصية لا سيما جدار القبلة والمحراب (٣٠) .

ومن الابراج التي يرجع الفضل في انشائها الى السلطان يوسف الاول برج أبي الحجاج الذي تعرض للتعديل والتغيير على مر السنين ولم يتبق من زخارفه ونقوشه الكتابية الا القليل النادر ومنها نقوش تتضمن شعار السلطان يوسف الاول وشعار بنى نصر «ولا غالب الا الله» ونقوش ترجع الى عهد ابنه محمد الغنى بالله ، هذا بالاضافة الى تصاوير ورسوم أوربية حديثة ترجع الى عصر النهضة (٣١) .

Torres Balbás: «La Alhambra», p. 40. (٢٧)

— Puertas: «Plano guía», p. 14.

(٢٨) عبد العزيز سالم : في تاريخ وحضارة الاسلام في الاندلس ، ص ٢٠٦

— Grabar: «The Alhambra», p. 75.

— Jesús Bermúdez: «La Alhambra», p. 51.

Grabar: «The Alhambra», p. 19. (٢٩)

— Pavón Maldonado: «Estudios sobre la Alhambra», p. 66.

Jesús Bermúdez: «La Alhambra», p. 57. (٣٠)

— Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 124.

— Gallego y Burín: «Granada», p. 116.

Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 109. (٣١)

— Pavón Maldonado: «La Torre de Abulḥaṭṭa de la Alhambra», p. 430.

ومن أعمال يوسف الاول بعض الأبراج الدفاعية الحصينة التى تحيط بقصور الحمراء فينسب اليه السور الحصين الذى يحيط بمرتفع الحمراء ، وبرج ماتشوكا ، وباب الطباق السبع ويقع فى الجهة الجنوبية ، وبرج القناديل «القاضى» ويقع فى الجهة الشمالية الشرقية بجوار برج الاسيرة ، ومعظم هذه الابراج ذات طابع عسكرى خالص وتختلف بين الشكل المربع والمستطيل ومزودة بشرفات ومزاغل للدفاع وتتميز بشدة تحصينها فمهمتها دفاعية بحتة (٣٢) .

محمد الجمل

---

Torres Balbás: «La Alhambra», pp. 24-25.

— Puertas: «Plano guía», p. 2.

— Jesús Bermúdez: «La Alhambra», pp. 26-29.

— Gallego y Burín: «Granada», pp. 117-120.



## متى وأين تصوف لسان الدين ابن الخطيب ؟

عرف التاريخ والمؤرخون لسان الدين ابن الخطيب شعلة ذكاء وظرف معرفة ، وعنوان حضارة ، وحامل لواء ثقافة ... هيمن بقلمه وفكره . ودهائه ، وتدبيره السرى والعلنى . على مجرى سياسة بنى الأحمر الداخلية ، وعلاقاتهم الخارجية المتحركة . المتلونة . التى كانت ترفعها رافعة ، وتخفضها خافضة مع جيرانهم فى الأندلس ، ومع حلفائهم فى أقطار المغرب العربى مدة غير قصيرة من الزمن .

كما عرفته الجامع والأوساط العلمية والأدبية القريبة من غرناطة ، والبعيدة عنها ... صاحب قلم سيال ، وثقافة متدفقة ، وموضوعات متنوعة . لا يفيض فيضها ، ولا ينضب معينها : شعرا ونثرا .

واتسته الظروف ، وابتسم له الحظ ، فاشتد ولان ، وضر ، ونفع . ورفع ، ووضع . فكان حركة دائبة ، فى الكتابة ، والوزارة ، والسفارة . وكان حظ ملوك بنى الأحمر أسعد من غيرهم ، لوجود هذه الأداة الفاعلة . فى بلاطهم . تسد فراغا . لا يسده غيرها .

وكان لسان الدين - وهذه ظروف حياته - لا ينسى ذاتيته . فيجمع الكتب ، ويتابع القراءة والكتابة والاطلاع والتصنيف والتأليف ومراسلة الأعلام المرموقين ، من حملة الأقلام والأفكار فى عدة أمصار .

ومن أجل ذلك لم تبطلعه المناصب السياسية والحياة الرسمية ، ولم يضيع ملكاته الفنية ولا معلوماته الأدبية . وبذلك تضخم تراثه من أشعار نظمها ، وكتب ألفها ، ورسائل حبرها ، وموضوعات : جدية وهزلية ؛ شغل أوقاته وأقلامه بها . ولسنا هنا بصدد إعادة ما بحث ، وإنما نحن هنا نقف وقفة تأمل فى ظاهرة . خاصة وهى :

- متى وأين . تصوف هذا النابغة العبقرى ؟ ولا نعنى بتصوف ابن الخطيب المشاعر الدينية فى نظمه وتأليفه ولا رسائله ، التى كان يحبرها ، ليحملها الحجاج

الى الروضة النبوية المكرمة ، فى المدينة المنورة شاكية . باكية راجية متشفعة ...  
تارة نثرا ... وتارة شعرا ... !

كما لا نعنى ما كان يجارى به ابن الخطيب الظروف العامة والخاصة ، التى  
كانت تفرض عليه فى بعض الأحيان . أن ينظم من القصائد والمقطعات المتعلقة  
بالأعياد والمواسم الدينية والمناسبات الظرفية الخاصة ، ما هو شهير فى تراثه  
الشعرى مثل القصيدة التى نجدها فى ديوان :

– الصيب . والجهم . والماضى . والكهام  
والتي قدم لها بقوله :

« ... وقلت وقد تشيع السلطان رحمة الله عليه للصوفية والفقراء ، وأحضرهم  
مجالسه وأظهر الميل اليهم ، وأمر بالنظم فى طريقتهم ... » ويعنى بالسلطان  
أبا الحجاج يوسف ، والد محمد الغنى بالله . والقصيدة جيمية رنانة . تبلغ  
أبياتها اثنين وأربعين بيتا ، بها لمحات صوفية مثل :

من خمرة السر المقدسة التى	كلفت بطاستها يد الحلاج
وأرت له الأشياء شيئا واحدا	فغدا يخاطب نفسه ويناجى
ورأى ابن أدهم لمحة من نورها	تلتاح بين مخارم وفجاج
فغدا من صوف الصفاء شعاره	واعتاضه من لبسة الديباج

ومثل :

وأتيت رب الدير فى محرابه	فبثثت افلاسى اليه وحاج
ناديته مترحما والليل قد	رجعت كتائبه على الأدرج
مالى سوك فلا تخيب مقصدي	ما خاب فيك رجاء عبد راج

هذه اللمحات جاء بها ابن الخطيب محاكاة ، ومجارة لا شعار أهل  
التصوف ، لا سيما وقد نظم هذه القصيدة كما قال فى مقدمتها :

– بأمر من السلطان يوسف ابن الأحمر . لكونه فى ظرف من ظروفه  
الخاصة تشيع لأهل التصوف . أصحاب زوايا غرناطة وغيرها من المدن  
الأندلسية ، التى كانت لا تزال تحت نفوذ دولة بنى الأحمر . ولكل زاوية شيخ  
وأتباع .

انما نعنى فى وقفنا هذه ما تقمصه ابن الخطيب من ادراك وجدانى كرد فعل  
لتفاهة ما رأى وما سمع ، وما خاض فيه ، وما أمر به ، وما نهى عنه ، وما  
جمعه من مال ، وما ملكه من أملاك ، وما أنجبه من ذرية ، وما قام به من أعمال



لصالح مخدميه ، وما ناله من حسد ، وكيد ووقية ودسائس ، كان بعضها من عمل أناس يقول : انه برهم وأحسن اليهم . وقربهم من رجال السلطة والنفوذ ، ولكنهم قلبوا له ظهر المجن .

فتصوف ابن الخطيب هو نتيجة عمليات مركبة ، من تقدم في الوعي ، وسعة في التجربة ، وظهور بعض الحقائق التي كان يكتُمها ، وبعض الثغرات التي كان يستهين بها . كما أن ظروف عيشه في بلاط بنى الأحمر ، والأحقاد التي تراكمت حوله ، والانهيال السياسى الذى بدأ يطل برأسه على عرش غرناطة ، وفجر النكبات ، وأظهر العورات ، وأعيب الحيلة والذكاء ؛ كل ذلك جعل ابن الخطيب وكأنه يدور في دوامة من الحيرة والقلق والندم والاحباط . والخوف .

- ولعل الانقلاب الغرناطى الذى تم (٧٦٠ - ٧٦٣ هـ) والذى فقد فيه ابن الخطيب أشياء كثيرة : مادية ومعنوية والذى ألجأه مع مخدمه : محمد الغنى بالله الى الإقامة بالمغرب - هو بداية شعور ابن الخطيب بأن الواجب يقتضى عليه أن يغير مجرى حياته ، اما بالإقامة بالمغرب واما بقصد الديار المقدسة . وهذا واضح في كثير من كتاباته ، التى خلد فيها مشاعره وخطراته ومشاهداته ، ولا سيما وقد قام برحلات في طول البلاد وعرضها ، وسكن مدينة سلا ، وعرف العلماء وعاش مع الزهاد ، وخلا بنفسه : مقبلا على التأمل . والعبادة . ومحاسبة النفس وتأليف الكتب مع شعور بالوحشة والغربة والاسى كما نحس من شعره ونثره .

ولكن المخاض السياسى والرواجف . والروادف التى كانت كل من غرناطة وفاس مسرحا لها . ما كانت لتترك مشاعر ابن الخطيب لتستقر ، وآماله لتتحقق ، وانفصاله عن السياسة ليتم ، واقباله على محاسبة النفس ليستمر ، بل انه يرجع - بين اكراه واختيار - الى منصبه في وزارة الغنى بالله ، ويستأنف تحمل أعباء المسؤوليات ، ومجابهة الكائدين ، مع اجابة رغبات النفس في اقتطاف بعض زهرات اللذات ، والتمتع بخيرات الحياة .

ويقول مؤرخو حياة ابن الخطيب ان هذه الحقبة من حياته كانت حافلة صاخبة تمكن فيها من املاء ارادته ، وتحقيق أغراضه ، والانفراد برأيه الشئ الذى حرك السعائيات والدسائس لتجد طريقها الى آذان الغنى بالله ، فأصبح يشك في اخلاصه ، ويصفى لقول عداته ، ويظن به الظنون . وعلى العادة المألوفة في باب الحقد والعداوة ، فان خصوم ابن الخطيب في غرناطة . تصيدوا الهفوات والزلات . وألبسوا حسناته لباس السيئات . وتناولوا : أمانته وأدارته وعقيدته ، وما خطته أقلامه من شعر ونثر .

وابن الخطيب واع بما يدور حوله ان ذاك عاودته مشاعره في الانقطاع عن العمل ، والفرار من جحيم : الشهرة والجاه والثروة والمنصب . وتراءت له في مكتبته الحافلة مجموعة كبرى من كتب التصوف ، فأقبل عليها فرارا من واقعه ومتاعبه ...!

ويحق لنا بعد هذه التصورات أن نطمئن الى أن اقبال ابن الخطيب على كتابة صوفية ومطالعة صوفية ، كان في غرناطة في آخر أيام وزارته الثانية :

- فهناك ظروف ... !

- وهناك استعداد ... !

- وهناك اقتناع ... !

ونتيجة لذلك يستعمل ابن الخطيب ذكاءه وأسلوبه وثقافته واطلاعه ، ليؤلف كتابه الفريد في بابيه : **روضة التعريف بالحب الشريف**

ومن ذكاء ابن الخطيب أنه جعل الحب الشريف عنوانا لكتابه ، وجعل داخل الكتاب عبارة عن دوحة باسقة لها فروع وأغصان وأوراق ، وما الى ذلك وجعل مقاصده ثمارا يقطفها ، وفيها كل المعاني النبيلة التي أجهد أعلام التصوف أنفسهم لابرازها وكأنها الظل الظليل الذي يأوى اليه المظلوم والمحسود : والضعيف ، والآثم والحيوان .

وعبقرية ابن الخطيب تتجلى في كتابه هذا : في استيعاب أعلام التصوف ، ومدارسه من أفلاطون الى الحلاج الى الشاذلي ، وغيرهم .

ولا ينسى ابن الخطيب أن يحشر نفسه . وشعره وآلامه وأشواقه في هذا المعرض الصوفي ، الذي تلونت فيه المقاصد والأساليب ، وكلها من الحب واليه فيقول :

وركائب جعلوا الدليل امامهم	وسروا ففازوا بالذى قد أملوا
والليل متلفة ومدرجة الهوى	لا يستقل بها المطى الذليل
والواصلون هم القليل وكيف لا	قفرة ومسبعة وليل الليل
يا رحمة للعاشقين تقحموا	خطر السرى وعلى الشدائد عولوا
طارت بهم أشواقهم فعقلوهم	معقولة . عن شأنها لا تعقل
عذرا لكم يا أهل عذرة شأنكم	سلمت فيه لكم فقولوا . وافعلوا

ومؤرخو ابن الخطيب يذكرون أنه ألف هذا الكتاب استجابة لاقتراح الغنى بالله لما اطلع على كتاب «ديوان الصباية» الذي ألفه ابن أبي حجلة سنة ٧٧٦ هـ

١٣٧٥ م في موضوع الحب والعشق وما خاض فيه الشعراء العشاق من وجدانيات ، صنفها المؤلف ، وعلق على بعضها تعليقات ذكية . مثيرة وإلى جانب روضة التعريف نجد ابن الخطيب يذكر في الترجمة التي كتبها لنفسه وأودعها آخر كتابه «الاحاطة» هذه العبارات المعبرة عن مشاغله :

« ... الى ما صدر منى في هذا العهد القريب . وهى : (الغيرة على أهل الحيرة) و (حمل الجمهور على السنن المشهورة) ، و (الزبدة المخوضة) و (الرميمة) ... (كذا) و (الرد على أهل الاباحه) ، و (سد الذريعة في تفضيل الشريعة) و (تقرير الشبه وتحرير المشبه) و (استنزال اللطف الموجود في أسر الوجود ... ! »

وهذه بطبيعة الحال أسماء رسائل ألفها ابن الخطيب في عهد قريب . ومن أسمائها نستشف أن ابن الخطيب شغل نفسه أواخر أيام وزارته الثانية في غرناطة بهذه الموضوعات المتكاملة . التي لها اتجاه صوفي أو قريب منه ، يلجأ اليه من جحيم الآلام والأحزاب ، والمكايد التي أحاطت به ، تنغص عيشه .

بعد هذا ينبغي أن نفرق في منهاج دراسة «تصوف» ابن الخطيب بين ظاهرتين اثنتين تتجليان في شعره ونثره ، والمجارات والمحاكاة للتيار الصوفي بسائر نزعاته السائدة في عصره ، وقبل عصره .

– وظاهرة النقد الذاتى الذى انطلق منه ابن الخطيب في نهاية المطاف الى الاقتناع باتخاذ التصوف ظلاً ظليلاً يأوى اليه تفكيراً وتأليفاً وسلوكاً ، ومحاولة يبتعد بها عن شبح الأهوال ، التي كانت تنتظره .

عبد القادر زمامة

## المصادر :

اعتمدنا على كتب ابن الخطيب الآتية :

- الاحاطة . القاهرة ١٩٧٧
- روضة التعريف . بيروت ١٩٧٠
- الصيب والجهام . الجزائر ١٩٧٣
- أعمال الاعلام . بيروت ١٩٥٦

وعلى دراسة :

- ١ - الأستاذ المرحوم محمد التطواني . «ابن الخطيب من خلال كتبه» تطوان ١٩٥٤
  - ٢ - الأستاذ المرحوم عبد الله عنان . «لسان الدين ابن الخطيب حياته وتراثه الفكرى» القاهرة ١٩٦٨ .
- وكتاب «ديوان الصبابة» لأحمد بن يحيى ابن أبى حجلة . بيروت ١٩٨٤ .



# أبو بكر ابن الصيرفي

## الشاعر المؤرخ

### عصر أبي بكر ابن الصيرفي

عاش أبو بكر ابن الصيرفي في حقبة مليئة بالأحداث ، حينما كان المرابطون (١) يحكمون المغرب والاندلس خلال المدة (٤٤٥ - ٥٤٢ هـ / ١٠٥٣ - ١١٤٧ م) ، وقد بلغ سلطانهم ، شمال افريقيا والاندلس ، كما واصلوا سعيهم في نشر الدين وتعاليمه في الجنوب الغربي وفي السودان (٢) .

لقد بسطت دولة المرابطين نفوذها ، وصار لها كيان سياسي وديني معروف بعد توحيدها لمنطقة المغرب العربي ولا سيما مشاركتهم الاندلسيين في محاربة الاسبان أولا ، ثم انفردت وحدها في المهمة عندما أصبحت الاندلس ولاية تابعة لها ، ولذلك عدت هذه الحقبة الزمنية قمة الازدهار الحضاري بعد عهود انقسام وضعف خلال عصر الطوائف (٣) . لذلك حاول المرابطون العمل من أجل إعادة وحدة العالم الاسلامي من خلال الوصول الى كيان اسلامي قوى موحد لا سيما ان أخطار الصليبيين بدأت تهدد المسلمين شرقا وغربا مما ولد قلقا مشروعا لدى المرابطين .

بيد أن انشغالهم في تثبيت سلطانهم في الاندلس وافريقيا حال دون ذلك . وفي تلك الحقبة المتميزة عاش أبو بكر بن الصيرفي ، مستلهما - من تطور

---

(١) لهذه التسمية آراء مختلفة منها : ملازمتهم الثغور لدفع الاعداء اخذا من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وقيل سموا بالمرابطين لملازمتهم رابطة الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي .  
ينظر : الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ١٠ ، والانيس المطرب لابن أبي زرع ، ص ٧٦ ، والترجمان المغرب لابي القاسم الزباني ، الفصل الخاص بالمرابطين . رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة من كلستان محمد سعيد ، جامعة غرناطة ١٩٨٥ ، ودول الطوائف لعبد الله عنان ٢٨٩ ، وقيام دولة المرابطين لحسن محمود ١٠٧ ، والشعر في عهد المرابطين والموحدين ، محمد مجيد السعيد ص ١١ .

(٢) ينظر : تاريخ الاسلام ، حسن ابراهيم حسن ، ٢٨٣/٤

(٣) ينظر : تاريخ الأدب الاندلسي : عصر الطوائف والمرابطين ، احسان عباس ، ٢٩

الأحداث وتفاعلاتها ، وانعكاساتها على الوضع الفكرى والعلمى لبيئته مستترفا كل العناصر الأدبية والشعرية - ، مخيلته الأدبية والتاريخية .

ويرى بعض الباحثين المحدثين (٤) أن الحركة الادبية لم يكتب لها النمو والازدهار آنذاك ، لأن عهد المرابطين عهد تراجعت فيه مكانة الشعراء ومنزلتهم - على حد زعمهم - ، وكسدت بضاعة الشعر ، وخلت الساحة لرجال السيف والشرعية . ويستشهد هؤلاء بما قاله بعض الشعراء كالاعمى التطيلي (٥) :

يادولة الضيم أجملى أو تجاملى      فقد أصبحت تلك العرى والعرائك  
وياقام زيد أعرضى أو تعارضى      فقد حال من دون المنى قال مالك

ونحن نتفق مع رؤية هؤلاء الباحثين في مدة حكم الأمير يوسف بن تاشفين (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ / ١٠٦١ - ١١٠٦ م) ، حيث انشغل المرابطون بأمور الجهاد دون الشعر والشعراء ، الا أن عهد ابنه الأمير على بن يوسف امتاز بتشجيع الشعراء والأدباء ، وأصبحت مجالس المرابطين تغص بهم مما جعل بعض الأمراء يقلدون ملوك الطوائف في عهودهم الزاهرة ، فاتخذوا من الشعراء والأدباء ندماء لهم ، وركنوا لحياة الدعة والترف . واستقدمت طائفة منهم الى مراكش ، وأخذ منهم كتابا أو وزراء . وقد أشار ابن الأبار الى ازدهار الحركة الفكرية في عهد الامير على بن يوسف حيث كان له أطيّب الأثر في ازدهار الثقافة آنذاك (٦) .

وازدهر أيضا فن التوشيح (٧) ، وظهر وشاحون كبار أمثال شاعرنا أبو بكر ابن الصيرفى ، والأعمى التطيلي ، وابن باجه (٨) ، وابن اللبانة (٩) وغيرهم .

(٤) ينظر : دولة المرابطين في عهد على بن يوسف ، سلامة محمد الهرقي ، ص ٣٢٨

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة المعروف بالأعمى التطيلي : أديب ومن الشعراء المجيدين . توفى سنة ٥٢٥ هـ .

ينظر : المغرب لابن سعيد ٤١٥/٢ ، وقلائد العقيان لابن خاقان ٢٧٣

(٦) ينظر : قيام دولة المرابطين ، حسن محمود ٤٤٤

(٧) وفن التوشيح : مظهر من مظاهر الترف الفنى ، وهو حركة تطور وتجديد وعودة الى الغنائية ، ظهر في الاندلس في القرن التاسع الميلادى .

(٨) هو أبو بكر محمد بن الحسين بن باجة الاندلسى : فيلسوف الاندلس ومن شعرائها الفحول ، توفى سنة ٥٢٣ هـ .

ينظر : وفيات الاعيان ٤٢٩/٤ ، والمغرب ١١٩/٢

(٩) هو أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة : من شعراء الاندلس وأدبائها المشهورين ، توفى سنة ٥٠٧ هـ .

ينظر : قلائد العقيان ٢٤٥ ، والمغرب ٤٠٩/٢

وإذا كان اختفاء شعر الخمریات والغزل هو المقياس في الحكم على تقدم الأدب أو انحطاطه فأن مثل هذا اللون من الادب قد اختفى في عهد المرابطين لأن دولتهم أكدت على تعاليم الاسلام النقية وابتعدت عن بعض ألوان الأدب كالغزل والخمریات المفرطة في الحسية مما صير الشاعر في اطار أخلاقي ساعد على بروز أدب يمتاز بصدق العاطفة وقلة المبالغة .

فالأدب في هذه الحقبة صورة متميزة لتلك الاغراض .

ومن جهة أخرى ، فان الأحداث المتتالية والنكبات التي ألمت بالعالم الاسلامي في تلك الحقبة مثل سقوط الخلافة في الاندلس ، وسقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين ، كانت مأس طبعت بصماتها على حياة المسلمين ، وكان الشعراء والأدباء في مقدمة من نظموا وكتبوا هذه الأحداث وصوروها وخلدوها شعرا ونثرا يعكس صور الجراحات العميقة والأحاسيس الصادقة المتمثلة بأدب تلك الفترة وتراثها .

### أصل ابن الصيرفي ونشأته

يكاد يجمع المؤرخون على أن ابن الصيرفي هو يحيى بن محمد بن يوسف (١٠)، إلا أن ابن عذارى جعله يحيى بن يوسف دون ذكر «محمد» ، وقد انفرد بذكر لقبه فقال : انه الأنصاري (١١) ، على حين ورد في كتاب نفح الطيب اشارة الى لقب أبي بكر فقال المقرئ : انه ابن الصيرفي الغرناطي (١٢) ، ولقبه آخر بالأنصاري الغرناطي (١٣) .

أما كنيته فهي أبو بكر ، وقد أجمع عليها كل من ذكرها .

أما لقب الصيرفي فلا بد أنه جاء من تصريف الدنانير ، وقد أشار ابن خلكان الى ذلك بقوله : والصيرفي هذه النسبة مشهورة لمن يصرف الدنانير والدراهم (١٤) .  
وجدير بالاشارة الى أن هذه النسبة تدل على وجود المصارف في ذلك الحين ، وقد أشار السيوطي الى لقب الأنصاري ابن الصيرفي فيعنى ذلك أن أباه أو جده كانا يعملان في الصيرفة .

---

(١٠) ينظر : الصلة لابن بشكوال ، القسم الأخير ١٨٣ ، وبغية الوعاة للسيوطي ٢/٢٤٣ ، وتاريخ الفكر الاندلسي لانخل بالثيا ٢٤١  
(١١) ينظر : البيان المغرب ٩١/٤  
(١٢) ينظر : نفح الطيب ، ١٨١/٣  
(١٣) ينظر : تاريخ الفكر الاندلسي ٢٤١  
(١٤) ينظر : وفيات الاعيان ١٩٩/٤

وأن نسبته الى غرناطة جاءت نتيجة لسكنه في هذه المدينة ، فهو أحد أبنائها (١٥) ولد أبو بكر بن الصيرفي سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، في مدينة غرناطة (١٦) وقد نشأ وترعرع فيها .

لقد أتيح لأبي بكر بن الصيرفي أن يتلمذ لخبذة من علماء عصره الأجلاء ، ذكر ذلك السيوطي (١٧) : بأنه أخذ عن أبي بكر بن العربي ، كذلك أشار ابن بشكوال الى شيوخ ابن الصيرفي بقوله : أخذ عن أبي الحسن بن مغيث ، وأبي بكر ابن العربي ، وأبي مروان بن بونه ، وغيرهم (١٨) .

توفي ابن الصيرفي سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م في مدينة أوريولة (١٩) عن تسعين سنة (٢٠) .

### مؤلفات أبي بكر بن الصيرفي

لم ينقطع ابن الصيرفي الى الشعر بل كان له نشاط في التأليف والكتابة . والظاهر من كتبه التي سنذكرها انه كان مؤرخا ، اذ انه ألف كتابا أسماه «تاريخ الاندلس» (٢١) وكتاب «أخبار لتونة» (٢٢) الذي ذكره المقرئ وأشار اليه أنخل بالنتيا ، الى جانب كتاب آخر عنوانه «أخبار الفتنة الثانية بالاندلس» (٢٣) وورد أيضا ذكر كتاب «أخبار لتونة» ولكن بتسميتين أخريين أثبتهما البستاني (٢٤) وهما : «تاريخ الدولة اللمتونية» و «الأنوار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية» . الا أنه للأسف ، ليس بإمكان الباحث - أيا كان - أن يتوثق من قيمة هذه الكتب

(١٥) ينظر : دائرة المعارف الاسلامية ٢٩٢/٣

(١٦) في الاسبانية Granada وتعني الرمانة ، وهي شعارها التاريخي ، والذي ما زال ماثلا على باب قصر الحمراء الرئيسي . كانت آخر القواعد الاندلسية الذاهبة . ولهذه المدينة منزلة خاصة في نفوس الاسبان وفي التاريخ الاسباني اذ يعتبر سقوطها في أيدي الاسبان سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، فاتحة عصر اسبانيا الذهبي .

(١٧) ينظر : بغية الوعاة ٢/٣٤٣

(١٨) ينظر : الصلة / القسم الاخير ١٨٣

(١٩) في الاسبانية Orihuela ، كانت قاعدة لمملكة تدمير القوطية ، تقع مدينة أوريولة بين مدينتي الش ومرسية على نحو عشرين كم من شاطئ البحر الابيض المتوسط . سقطت هذه المدينة في أيدي الاسبان سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م .

(٢٠) التكملة لابن الأبار ٢/٧٢٣

(٢١) ينظر : بغية الوعاة ٢/٣٤٣

(٢٢) ينظر : نفح الطيب ٣/١٨١

(٢٣) تاريخ الفكر الاندلسي ٢٤١

(٢٤) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٢ ، والحلل الموشية ٩٣



العلمية أو الأسلوبية نظرا لضياعها كما صرح بذلك محقق كتاب الحلل الموشية وكذلك بالنتيجة (٢٥) .

ونظرا لعدم وجود نقولات كافية عنهما في متون كتب التراث ، اذ لم نعثر الا على نص واحد مقتبس من كتاب «الأنوار الجلية» ذكره صاحب كتاب الحلل الموشية (٢٦) ، وهو نص لا يعطينا فكرة متكاملة عن أسلوب المؤلف والقيمة العلمية للكتاب .

ومن كتبه أيضا كتاب «أبراز اللطائف» ولعل موضوعه مستمد من بعض النوادر الأدبية (٢٧) .

#### ابن الصيرفي وتقويم الثقاف القدامى له :

حظى أبو بكر بن الصيرفي باهتمام وتقدير أدباء الاندلس ونقادهم ، مما يدل على علو منزلته ، ورفعة مكانته عندهم ، فقد أثنى عليه غير واحد منهم من ذلك على سبيل المثال لا الحصر - ما قاله ابن الزبير في كتابه صلة الصلة : من أن ابن الصيرفي «كان من أهل المعرفة بالعربية والآداب واللغات والتاريخ ومن الكتاب المجيدين والشعراء الكثيرين» (٢٨) .

ويبدو أن هذا الرأي ظل محافظا على ما فيه من حكم على ابن الصيرفي حتى القرن العاشر الهجري حيث رده السيوطي بحذافيره (٢٩) . فضلا عن هذه الصفات التي امتاز بها أبو بكر بن الصيرفي والتي جعلته يتسنى ذرى المجد الثقافي في عصره . ويبدو لنا من خلال النص الذي سوف نثبته بعد قليل ، والذي قاله في حقه لسان الدين بن الخطيب ، أن لأبي بكر ابن الصيرفي باعا في الحفاظ زيادة على ما عرف عنه من دقة في الكتابة من حيث ايضاح المعاني وتقسيم الأفكار ، كما يبدو أن لصاحبنا معرفة في السلوك الانساني مما هيأ له أن يكون مستشارا للملوك يلقي عليهم من خلال مديحه لهم ، حكمه ونصائحه وهي بشهادة ابن الخطيب نصائح ثمينة شأنها في ذلك شأن الدرر تماما ، يقول ابن الخطيب في وصفه : «كان آية باهرة ومعجزة ظاهرة ، عرف احسانه وأصاب لسانه ، بهرت أقسامه فاجتليت وسطرت بدائع معانيه فتليت ، مع تحقيق الآداب ، واتساع في اللغات

(٢٥) دائرة المعارف ٢٩٢/٣

(٢٦) تاريخ الفكر الاندلسي ٢٤٢

(٢٧) معجم المؤلفين ٢٣٠/١٣

(٢٨) نقلا عن بغية الوعاة ٣٤٣/٢

(٢٩) ينظر : المصدر نفسه ٣٤٣/٢

وحفظ الشعر والانساب ، مدح الدول والملوك ، ونظم على أجيادهم تلك الندر في السلوك» (٣٠) .

ولا ريب في أن كثرة حفظه قد شذبت مخيلته الشعرية وأضفت عليها نصيبا غير قليل من الابداع والخلق ، ويكاد مؤرخو الأدب يجمعون على رقة شعره كما أقادنا بذلك ابن الأبار (٣١) ، إذ أنه ما من أحد يتلو موشحاته الا ويخرج بشعور أو قل بحكم مفاده : ان شعر بن الصيرفي يعبر عن حس رقيق يصدر - ولا ريب - عن انسان رقيق .

لقد تهيأ اذن لابي بكر بن الصيرفي ما لم يتهيأ لغيره من الكتاب والشعراء من الصفات ما جعله يتبوأ مركزا مرموقا في مجمع العلماء وفي الدولة على حد سواء ، فلا عجب في أن يتصل بالامير المرابطي تاشفين أبي حامد وأن يعينه هذا الأخير كاتباً له ، وأن يتولى أعمال المرابطين جميعا (٣٢) .

وهكذا نستطيع أن نقول : أن أبا بكر بن الصيرفي كان موسوعة عصره - ان صح التعبير - فهو مؤرخ ، وعارف باللغات ، وشاعر مجيد ذو حظوة لدى أمراء المرابطين قلما حظى بها عالم أو مؤرخ أو شاعر .

#### شعره وموشحاته :

أجمعت المصادر التي ترجمت حياة أبي بكر بن الصيرفي على أنه شاعر مجيد ، وكان كثير الشعر .

يظهر أن ميل ابن الصيرفي الى الشعر لم يكن بأقل منه الى النثر ، بل لعل اهتمامه به أكثر ، وهو به أعرف وأشهر ، ومن أجل هذا فقد وصل الينا من شعره أكثر مما وصل الينا من نثره ، وقد حفلت ترجماته بشعره أكثر مما حفلت بنثره ، بل أجمعت المصادر التي ترجمت له على أنه كان شاعرا مجيدا ، كثير الشعر (٣٣) بيد أنه لم يبق لنا من هذا الكثير الا القليل .

ففي قصيدة له أنشدتها حينما استقر الامير تاشفين في قرطبة وهي قصيدة تتألف من عشرين بيتا ، لم يذكر ابن عذارى منها الا صدر البيت الاول وفيه تحريف ، الا أن ابن خلدون ذكرها كاملة وصحح مطلعها فكان :

(٣٠) جيش التوشيح لابن الخطيب ١٢

(٣١) ينظر : التكملة ٧٢٣/٢

(٣٢) ينظر : تاريخ الفكر الاندلسي ٢٤١

(٣٣) ينظر : بغية الوعاة ٣٤٣/٢ ، والتكملة ٧٢٣/٢ ، والمغرب لابن سعيد الاندلسي ٤٠٩/٢

يا أيها المأل الذي يتقنع من منكم الملك الهمام الأروع (٣٤)

يعرج الشاعر بعد هذا المطلع الى وصف ثبات الامير تاشفين في أوان لم يثبت معه أصحابه لأنهم فوجئوا ليلا بغدر الأعداء ولذلك تولوا عنه حينما اشتد الطعان وان كان الوفاء قد أعادهم اليه كرة أخرى ، فقاتلوا واستبسلوا حتى أصبح الليل كأنه فجر لما يلمع من بيض السيوف فوق هامات الجند . ثم يصور منزلة الأمير في قومه ، فيشبهه بانسان العين أو القلب ، غير أنهم لم يحصنوا أو يحفظوا هذا الانسان من قذى الأعداء ، ولم يدافعوا عن هذا القلب بصدورهم وانما أسلموه وتركوه فريدا وحيدا في ساحة الوغى . وأنه لقادر على معاقبة هؤلاء القوم ولكنه وهو الكريم أولى بأن يعذرهم لأن الليل قد أسدل ستاره فاغتنم الأعداء هذه الفرصة السانحة يقول :

ومن الذى غدر العدو به دجى تمضى الفوارس والطعان يصدها والليل من وضع الترائك أنه أنى نزعتم يابنى صناجة انسان عين لم تصبه منكم وصددتم عن تاشفين وأنه ما أنتم الا أسود خفية يا تاشفين أقم لجيشك عذره	فانفض كل وهو لا يتزعزع عنه ويدحرها الوفاء فترجع صبح على هام الجيوش يلمع واليكم في الروع كان المفزع حصن وقلب أسلمته الأضلع لعقابه لو شاء فيكم موضع كل لكل كريمة مستطلع بالليل والعذر الذى لا يدفع
---	---

ثم يمضى الشاعر في قصيدته مذكرا أمير المؤمنين تاشفين بما كان يتمتع به بعض من سبقوه في أدب السياسة ، ان كان ملوكهم يلبسون من الدروع المحكمة الصنع ما يحميهم ويقيهم من كيد الأعداء ناصحا اياه باتخاذ السيف الرقيق الذى لا يعيقه سواء في حالة اندفاعه وراء الاعداء أم في حالة انساحبه عنهم ، موصيا اياه باتخاذ الخيل السريعة الجريان قائلا له : فلتكن هذه عدتك في أيام الشدة ، فهي أنفع لك من حد السيف ، واقطع منه في رقاب الأعداء :

لأننى أدرى بها لكننها والبس من الحلق المضاعفة التى والهند وأننى الرقيق فانه واركب الخيل السوابق عدة	ذكرى تحض المؤمنين وتنفع وصى بها صنع الصنائع تبغ سيان تتبغ ظافرا أو تتبغ أمضى على حد الدلاص واقطع
--	---

أما في القسم الثالث والأخير من القصيدة ، فنرى الشاعر يكيل للأمير النصائح التعويية ومنها : أن يضرب على نفسه خندقا في حالة الهجوم يكون بمثابة الحصن الحصين له من كيد الاعداء ، مشيرا عليه أن لا يقطع الوادي الذي بينه وبين أعدائه لأنه سيكون والحالة هذه عائقا طبيعيا أمامهم لا يستطيعون أن يجتازوه بسهولة ، كما ينصحه في أنه يحصر نطاق الحرب في دائرة ضيقة ، وأن يكون صبورا في بداية الأمر لأنه انما يجزع الضعيف المخدول من مواجهة الحرب لا القوى الحازم .

وأخيرا يذكر الامير بأنه لابد من أن يجعل طلائعه من ذوى الشهامة والشجاعة والنجدة لأنه لا فائدة في من يرجع اليه منهم ، فيهول عليه الأمر ويفت في عضده وسواعد جنده يقول :

خندق عليك اذا ضربت محلة	حصنا حصينا ليس فيه مدفع
والواد لا تعبده وانزل عنده	بين العدو وبين جيشك يقطع
واجعل مناجزة الجيوش بمعرك	ضنك فاطراف الرماح توسع
واصبر لأول مرة لا تكثرث	شيئا فاظهار النكول يضعضع
واجعل من الطلاع أهل شهامة	للصدق فيهم شيعة لا تخدع
لا تسمح الكذاب جاءك مرجعا	لا رأي للكذاب فيما يصنع

والقصيدة من بحر الكامل ، وهو بحر مناسب للمديح الا أنه غير ملائم كما نرى لوصف المعارك والمواقع الحربية وان كان الشاعر قد وفق في اختيار قافية العين خير توفيق ، الا أن الصفة الغالبة عليها كانت هي الصفة التقريرية ، حتى بدت القصيدة وكأنها شعر تعليمي جاء ليقرر بعض النصائح والارشادات الحربية ، فكانت من جراء ذلك خالية من الخيال الذي نراه عند كبار وصافي المعارك الحربية كالمتنبى على سبيل المثال .

أما مديحه للأمير تاشفين فلم يخرج عن ترديد بعض الصفات التي ردها الشعراء من قبل ، كالثبات والشجاعة والعفو عند المقدرة .

والقصيدة بعد كل هذا وذاك خالية من الصور البلاغية الرائعة والتشبيهات التي تأخذ الباب السامعين .

وله قصيدة أخرى التي جاءت على بحر البسيط فهي لا تعدو أن تكون تهنئة من الشاعر لأميره في عيد الفطر ، وهي تتألف من سبعة أبيات ابتدأها الشاعر بغزل رقيق يصف فيه مسرى الحبيبة في الظلماء أو ان الغسق ، فيشبهها كشجرة البان التي تضوع بالعبق كلما مر الصباح عليها بنسائمه العذبة يقول :

عرفت والليل مزور على الأفق      خفى مسراك في الظلماء والغسق (٣٥)  
يا بانة كلما افتر الصباح لنا      ألقى النسيم عليها نفس معتبق

أما مديحه للأمير تاشفين فقد ظهر فيه من المبالغة الشيء الكبير ، فالأمير في نظره أكرم الناس ، متكامل في خلقه بل أنه ليعلو بملكه على هامات بقية الملك ، وهذا بطبيعة الحال لا يخرج عن نطاق ما رده المداحون من الشعراء من قبل ، وهو وصف مبالغ فيه يقول :

يا أكرم الناس عفوا عند مقدرة      وأجمل الناس في خلق وفي خلق  
لا زال ملكك يعلو كعبه أبداً      هام الملوك كما تعلو على السوق

وليس في هذه القصيدة شيء من البديع يستحق الذكر ، أو من الصور البيانية البديعة اللهم الا ما ذكرناه عن البيتين اللذين افتتح بهما الشاعر قصيدته متغزلاً اذ جعل من الرقة ومن الصور ما لم نره في بقية القصيدة كالمطابقة بين الظلماء والغسق ، والاستعارة في قوله : افتر الصباح ، وتشبيه الحبيبة في قوامها بشجرة البان التي تتمايل حينما تمر عليها نسيمات الفجر .

أما موشحاته فقد رأينا أن نحلل موشحتين منها لتكونا مقياساً لمستوى بقية موشحاته التي نتمنى أن تكشف عنها الأيام لأننا نعتقد أن أغلب موشحات أبي بكر بن الصيرفي قد طوتها يد الزمن .

وقد تبدأ الموشحة عند أبي بكر بن الصيرفي بما يسمى عند البلاغيين بـ «تجاهل العارف» وهو أسلوب غالباً ما يتبع في مطالع القصائد لا سيما عند شعراء العصور المتأخرة فهو يتساءل دون أن يطلب اجابة ما ، عما اذا كان قد وقع بصره على شفاه حمراء أم على عقيق ينطبق على أسنان كاللؤلؤ المنضود ، وعما اذا كان قد شاهد بأعينيه خدوداً بلون الدم أم وروداً كشقائق النعمان ، مشرقة اشراق البذور ،

أثغور أم عقيق      بلال تحديق      وخدود أم جنى الورد) ما يشرق (٣٦)

واذا كانت العادة قد جرت كما أسلفنا على استعمال «تجاهل العارف» في المقدمة ، فأن الشاعر ما أن يتقدم في موشحته خطوة حتى نراه يغرق في الصنعة منذ البيت الاول : فقد جعل على سبيل المثال الاستعارة - للهوى أيادي ، ثم

(٣٥) راجع القصيدة في البيان المغرب ٩٥/٤

(٣٦) راجع الموشحة في جيش التوشيح ص ١٢١ - ١٢٢

استلّف للسقم ثيابا ، وجعل الهوى متحركا اذ أعطاه الرخصة في أن يلبسه هذه  
الثياب ، ثم لم يكتف بذلك حتى عقد بين القلب والجسم محاوره ، فاذا بالقلب  
يشتكى من حرما يلاقيه الشاعر من ألم الجوى الى جسمه المنهك ، فاذا ما خلص  
الشاعر من تحديد مكان الالم ومحط العلة ، فانه ينتقل بعد ذلك الى تحديد الزمان  
والظروف المحيطة به ، ولذلك يصرح بأن كل هذا حدث في جنح ليل داج لانجم  
فيه ، ولا علامات مما يدل على أن حيرة الشاعر أعمق من أن تحددها حدود ؛  
فضلا عما رافقه من برق يخفق في الآفاق كخفقان قلب الشاعر ، ورعد يزمجر  
بالسنه اللاهبة غير الناطقة مثل لهيب الجوى في جوفه .

البستنى حلة السقم      أيدي الهوى  
وشكا قلبي الى جسمي      حر الجوى  
تحت ليل غائر النجم      وحف الصوى

أعربت فيه البروق      عن فؤاد يخفق      بجوى من السن الرعد      كما تنطق

ثم يبدأ الشاعر بوصف وجه حبيبه . معتمدا على عنصر التشبيه فهو كالبدن  
لمعانا وكشمس الضحى بريقا ، وهو بعيد كبعد هذين الشينين دلالة على أنه لا ينال  
بيسر وبسهولة ، فهو اذن جامع للامرين معا ؛ العلو والوضوح ، فضلا عن ثنايا  
أسنانه المفلجة التي تشع بالحلاوة ، وبالعطر في آن واحد ، انها رحيق ، وماء  
زال ، فاذا ما تكلم صاحبها ، وألقى التحية ، ولو كان على مسافة بعيدة ، فاح  
عطر أسنانه ، فاستنشقت الأنوف ، واستطابته :

بأبى بدر ولا الآ      شمس الضحى  
بدا فانجلي فما أعلى      وأو وضحا  
وثنايا فيه ما أحلى      وأفوحا

مزجت فيه الرحيق      بنمير يعبق      فاذا حيا على البعد      ستنشق

ازاء وجه كهذا ، لحبيب كهذا الحبيب يرى الشاعر نفسه مغلوبا على أمره ،  
لا يطيق الصبر ، ولا الصبر يطيقه ، ثم تشتد حيرته فلا يعرف نفسه ، لأن الحبيب  
لم يوله احسانا بل كان على الدوام بعيدا عنه هاجرا اياه ، ثم يعود الى التساؤل  
والحيرة في وصف معالم حبيبه هل هو بشر أم بساقه ورد ملونة ، تنتقل من مكان  
لآخر ، فهي تجمع الياسمين «العيون» والشقيق «الشفاه» والجلنار «الخدود» فوق  
قد كأنه غصن من جنة الخلد ، عال لشموخه بحمل هذه المفاتن :

أنا مغلوب على صبرى      فما أنا  
وحبيبي دائم الهجر      لم يحسنا  
جملة من يانع الزهر      لو تجتني

ياسمين في شقيق جلنار مشرق غصن من جنة الخلد مستشرق

لقد بدأ قوام الحبيب كقضيبي الخيزران ، أو كقضيبي البان في حين راح الشاعر يبكي عليه ، لأنه لم يغزبه ، حتى غدت دموعه كالظل الذي يتساقط على أغصان الأشجار الياضعة ، أما لحاظ الحبيب فان لها من التأثير الكبير في الشاعر ما يشق على القلم وصفه ، فانها حققت ما تدعيه من مأرب اذ أصابت القلب ، بل أنها انتزعت الضلوع على صلابتها من أماكنها ، فاذا الشاعر مشفق على عينيه التي رأت ، ونفسه التي طمحت وفؤاده الذي وقع في بحر الغرام دون أن يعرف العوم ، عيناه غارتا بكاء ونفسه انكسرت مهمومة وفؤاده يتلظى محترقا :

يا قضيبياً فوقه طل من أدمعى  
أخذت الحافظك النجل ما تدعى  
فلها قلبي وما تخلو من أضلعي

ما جنت عيني تذوق غير أني مشفق لفؤادي من لظى الوجود ما يحرق

أما البيت الاخير من الموشحة فهو عبارة عن موازنة بين قوة الحبيب وجوره وبطشه وبين ضعف العاشق وانهيائه وحرمانه ، فالحبيب كالأسد المفترس يأخذ عن قدرة ، ويفترس عن طاقة ، ويستعبد ولا يستعبد ، وهو دأب على الافتراس ، وصيد القلوب ، مع أنه غزال شارد ، أرهق كلاب الصيد ، التي أرادت أن تصل اليه ولكن دون جدوى :

رشا من ضاربي زيد مستأسد  
أخذ ما شاء عن أيدي مستبعد  
أبدأ يهيم بالصيد فيبعد

الغزال شق الحريق والسلاق ترهق ما نرى الآن مرادى لم يلحق

أما حين يمازج شرب الخمرة وصال الحبيب فأن الشاعر يحس بأفضل حالاته على الإطلاق ، فالسعادة المتحققة عنده لا تطاولها سعادة والحبور الذي ينعم في ظلاله لا يصل اليه حبور ، فالعيش الرغيد ليس سوى لثم خده ، والسرور المقيم ليس الا شرب خمرة من بين يديه :

أسقنيها على رياض ( وجنات من الملاح

انما العيش والسرور ) لثم خذ وشرب راح (٣٧)

وان يصف الشاعر كأس خمرته التي تطرد الهموم عن فؤاده المعنى ، كلما لج به  
داعى الهوى ، يغرق في الصنعة فيصف الخمرة بالشمس ، والحبيب بالنجوم وهي  
تحل في سماء زجاج الكأس ، وكأن كرم النفس وابتهاجها لا يتحصل الا من  
خلال معاقرة الخمرة ، ليس هناك اذن ما يعوض عن الكأس فهو الراحة الكبرى  
لشاربه ، وكؤوسه تنفى الهموم عن القلب فاذا هو فرح مبتهج منتش :

قهوة تنتفى الهموم	كلما شجها المزاج
كلل الشمس بالنجوم	في سماء من الزجاج
أسقنى بابنة الكروم	كرم النفس بابتهاج

ليس من شربها اعتياض ( ومن الهم يستراح  
ذي كؤوس بها تدور ) في غبوق أو اصطباح

لم يصف الشاعر حبيبه معرجا على حمرة خدوده التي تشبه حمرة شفثيه ، أما  
القد فهو عبارة عن غصن رطيب حمل فوقه وجها كأنه قمر في حال تمامه أو في زمن  
سعده ، أما الثغر فهو مفلج كالاسنان المعقودة فيه ، وبعد هذا وذاك تأتي المفارقات  
ففى حين ترى جفون الحبيب وكأنها مريضة تمرض نفس الشاعر الصحيحة ،  
فعلى الرغم من فتور هذه الجفون البادية الضعف ، فانها تصيب وتؤذى وتؤلم

بأبى من نجده	مثل ما منه في الفم
قمر عند سعده	في قضيب منسم
ثغره مثل عقده	أي ثغر مبسم

ذي جفون له مراض ( تمرض الأنفس الصحاح  
وهى بالضعف والفتور ) تقتل الأنفس الصحاح

بعد هذا يصل الشاعر الى مرحلة الانهيار ، حيث يرى نفسه أسير حبه ، الذي  
أضناه ، فيرضى بما هو مقسوم له ، على غرار ما نشاهد عند شعراء الغزل  
العدوى العفيف ، فهو يبكى دماً ، والحبيب يجور عليه في أحكامه ، وهو صابر ،  
حتى وان أودى الهوى بحياته وكان لسان حاله ينشد قول الآخر :

ولك الامر فاقض ما أنت قاض فعلى الجمال قد ولاكا  
يقول :

ياغزالا تحكما	في حياتي بباطل
أنت أبكيتنى دما	حيث ما كنت وأصلي
أنا أهواك كيفما	كنت ، لو كنت قاتلي



فاقض في ما أنت قاض لا تخف بي من جناح أننى للقضا صبور  
والذى شئت صلاح

ولكنه يفقد الأمل فان بريقه يظل يداعبه فلعل الحبيب يرضى ، ولعله جاهل بما  
يرضيه فهو يتلمس الوسيلة الى ذلك ما استطاع سبيلا بل يأمل أن يعيد الحبيب  
النظر في أمره ، لأنه رقيق وليس من طبع الرقيق أن يكون قاسيا الى هذا الحد :

كيف لى يا نائي	منك بالوصل ، كيف لى
لم تذر في باقيه	بالجفا والتدلل
أعد لأمر ثانيه	فعمسى أن يرق لى

فاحمرار على بياض وقراح على أقاح مشرق زهره بنور مثلما يشرق الصباح  
ثم يوازن في نهاية الامر بين حاله وحال حبيبه معتمدا على المقابلة في اصفاء  
حلة قشبية من البلاغة على كلامه ، ففي حين يشقى هو ، ينعم الحبيب بقيادته ، وفي  
حين يتمنى وصاله ، وقطف الورود من خده ، ورشف الكؤوس من رحيق ثغره ،  
تراه يبتعد عنه ، ويشح بما له من مفاتن ومحاسن ، انه اذن كالفرس الجامح  
الذى لا يراض ، وأن ما يعد به لحظة الوسنان لا يشكل شيئا ذا بال عند الشاعر  
الذى لا يحصل منه على نتيجة شأنه في ذلك شأن القابض على الرياح ، ترجع يده ،  
في نهاية الامر ، خاوية ، فارغة بيضاء .

أنا أشقى وينعم	ذا الرشا القائد المليح
ليس يقضى ويحكم	في الهوى غير مستريح
كيف يرجو المتيم	روض وصل من الشحيح

نافر العقل لا يراض محفر مكثر الجماح ان للحظ من فتور مثلما تقبض الرياح

### الخاتمة والنتائج

طبقا لما رأينا ، فان شعر ابن الصيرفي التقليدي كما يخلو من الخيال والذاتية ،  
فان موشحاته تسبح في خيال وذاتية عبر رقة وغنائية تتجلى في رهافة الكلمة والبنية  
الحكاية التى تكشف في توال عن شاعرية متميزة لو شاح أصيل .

## المصادر :

- بغية الوعاة للسيوطى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مصر ١٩٦٥
- البيان المغرب لابن عذارى . نشر ليفى بروفنسال . باريس ١٩٣٠
- تاريخ الادب الاندلسى لاحسان عباس - عصر الطوائف والمرابطين . بيروت ١٩٦٢
- تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن . ط ٧ . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤
- تاريخ الفكر الاندلسى لانخل بالنثيا . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٥
- التكملة لكتاب الصلة لابن الآبار . نشر كوديرا . مدريد ١٨٨٧ - ١٨٩٠
- توشيح التوشيح للصفيدي . تحقيق البير حبيب . بيروت ١٩٦٦
- جيش التوشيح لابن الخطيب . تحقيق هلال ناجى ومحمد ماضور . تونس ١٩٦٧
- الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية لمؤلف مجهول . طبعة تونس
- دولة المرابطين : لسلامة محمد سليمان الهرفى . دار الندوة الجديدة . بيروت ١٩٨٥
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام . طبعة لجنة التأليف . القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥
- الشعر الاندلسى لاميليو كارثيه كوميث . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٢
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس . للدكتور محمد مجيد السعيد ، دار الرشيد للنشر . بغداد ١٩٨٠
- صلة الصلة لابن الزبير . تحقيق ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٨
- فوات الوفيات لمحمد شاكر الكتبى . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية .
- قلائد العقيان لابن خاقان . طبعة تونس ١٩٦٦
- المرابطون والموحدون وبنو الأحمر من كتاب الترجمان المغرب لابی القاسم الزيانى .

- رسالة دكتوراه مقدمة من كلستان محمد سعيد . جامعة غرناطة .
- معجم المؤلفين كحالة . مطبعة الترقى . دمشق ١٩٥٧
  - المغرب في حلّ المغرب لابن سعيد . تحقيق الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف بمصر .
  - المقدمة لابن خلدون . ط. كاترمير . باريس ١٨٥٨
  - نفح الطيب للمقرئ . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٦
  - وفيات الاعيان لابن خلكان . تحقيق محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٨

الدكتور محسن اسماعيل محمد



## ملخص مداخلات أسبوع

تكريم المستشرق العظيم : إميليو جارثيا جومث

الذكرى الأولى ١٩٩٦/٥/٣١

**تفضل السيد السفير ابراهيم على حسن بافتتاح هذا الأسبوع بكلمة موجزا :**

اسم مصر يحمل بعدا هاما لكل الانسانية لأن التراث المصرى هو تراث للانسانية جمعاء . هذا البعد هو الذى حرك جارتيا جومث وكان حافزا له على العمل الخلاق فى مجالات الاستعراب لأن مصر أيضا عربية . عاش جارتيا جومث يعمل من أجل وطنه ومن أجل تراثنا ، وأحب مصر وظل صديقا وفيها لها ومصر لا تنسى أصدقاءها . وقد كان جارتيا جومث يقود الاستعراب فى اسبانيا بينما يقود صديقه عبد العزيز الأهوانى فى مصر فريق الدراسات الاسبانية . وبين المجالين حقل مشترك هو الذى يوحد بين بلدينا . ان اسبانيا بعد الرجلين ، لم تعد مثل اسبانيا قبلهما ، لقد اقتربت منا واقتربنا منها حتى صارت بالنسبة للعرب « اسبانيا الشقيقة » .

فى كلمة ماريا دولوريس الجورا ويبر تقدم تأريخا بالغ التشويق لدور اسبانيا فى الاقتراب الثقافى من العالم العربى وبصفة خاصة مصر ، هذا الدور الذى نهض به جارتيا جومث بناء على مبادرة منه وتكليف من وزارة الخارجية الاسبانية وذلك بعد الحصار الذى تعرض له نظام فرانكو من الغرب وقد عرضت لبدائيات هذا الاقتراب الثقافى برحلة قام بها جارتيا جومث عام ١٩٤٧ الى القاهرة وعمان وبغداد ودمشق وبيروت وكيف كانت هذه الرحلة بداية لتعميق العلاقات الثقافية كخطوة نحو تعميق العلاقات السياسية . وقد أسفرت هذه الرحلة فيما بعد عن انشاء المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدرين وتعيين الدكتور طه حسين عضوا فى الأكاديمية الملكية للتاريخ ودعوته لزيارة اسبانيا واعلان الحكومة الاسبانية عن رغبتها فى تشييد المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدرين فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٩ وقد تحققت زيارة طه حسين الى اسبانيا وافتتاح المعهد بعد ذلك بعام بالضبط .

وتنهى هذه الباحثة دراستها الشيقة بسؤال عما اذا كان الحديث عن التقارب الثقافى بين جنوب البحر الأبيض المتوسط وشماله لتفادى تصادم الحضارات يقدم جديدا ؟ ان جارتيا جومث فى اسبانيا وطه حسين فى القاهرة صنعا هذا التقارب بأفعال وليس بأقوال واذا كان التاريخ ذاكرة للشعوب فان هذا التقديم التاريخى للتقارب الثقافى يضع قاعدة قوية لمستقبل العلاقات الثقافية .

الوى بنيتو روانو السكرتير العام للأكاديمية الملكية الاسبانية للتاريخ تحدث عن دور اميليو جارتيا جومث فى الكشف عن تاريخ اسبانيا عبر تراثها العربى وذلك خلال المؤسسات الكثيرة التى أصبح عضوا فيها أو مؤسسا لها أو شريكا فى تأسيسها كعضويته فى الأكاديمية الملكية للتاريخ وأكاديمية روما ومراكش

والدكتوراه الفخرية من عدد من الجامعات الاسبانية بجانب تأسيسه لمدرسة للدراسات العربية بمديره على غرار مدرسة الدراسات العربية بغرناطة . وتأسيسه مع أستاذه أسين بالاثيوس مجلة الاندلس . وأستاذيته بالجامعات المختلفة وذلك في الثلاثينات من عمره . وقد انتهت هذه الجهود بعدد من الكشوف التاريخية التي حملته الى منصب مدير الأكاديمية الملكية للتاريخ وخلقت صفحة جديدة في المعرفة بتاريخ اسبانيا بل وتاريخ الحضارة العربية الاسلامية .

أورورا كانو تحدثت عن أن جيلها هو جيل تلامذة جارتيا جومث وأن هذا الجيل هو حلقة الوصل بين جيل جومث والأجيال القادمة ، وأن هذا الجيل مهتم بالعالم العربى المعاصر دون نسيان ماضى هذا العالم ، الذى عرف به جارتيا جومث عبر كتابته الجميلة ولغته المتميزة . ولقد كانت كلمتها طوال الوقت تعبيراً عن مشاعر قسم اللغة العربية بكلية آداب الأوتونوما

ميجيل كروث هرناندث . يتحدث كشاهد عيان لعملية تأسيس المعهد الاسبانى العربى للثقافة بهدف توثيق العلاقات بين اسبانيا والعالم العربى فى لحظات كانت العلاقات بين اسبانيا ومراكش حرجة والحياة السياسية الاسبانية فى موقف بالغ الصعوبة . ان أهمية خلق هذا المعهد التى تصورها وعرفها الأستاذ جومث تتركز فى كون أن الأستاذ كان الدافع وراء تأسيسه والرجل الذى يذيب الصعوبات من طريق بدء الحياة لهذه المؤسسة ذات الأهمية البالغة والحيوية الفائقة من النواحي الدبلوماسية والأكاديمية فى نفس الوقت لتكوين جيل من المستعربين والعرب المتخصصين فى الدراسات الاسبانية .

أما كلمة بيدرو شالميتا فهى كلمة تطرح تصورات عن القرن العشرين الذى تميز عن القرن التاسع عشر بميلاد مؤسسات تموت لصالح مؤسسات أخرى . وميلاد المعهد الاسبانى العربى للثقافة ومجلة الأندلس على يد جارتيا جومث ثم موتهما فى حياته لا يعنى شيئاً سوى تلك التغيرات السريعة لهذا العصر أما جهد جارتيا جومث العلمى فهو شئ لا علاقة له بتلك التغيرات لأن منتجات العلم خالدة ونحن الآن غارقون فى العواطف والوقت وحده بعيداً عن العواطف سوف يكشف عن قيمة هذا الجهد العلمى لجارتيا جومث بطريقة بعيدة عن العاطفة لتضع هذا الجهد فى مكانه بعيداً عن الدور العام غير العادى الذى قام به جارتيا جومث .

أما الأستاذ خوسيه ماريا فورنياس فقد قص أثر حياة دون اميليو فى نزهة جميلة وعن تطور الدراسات العربية فى مدينة الأغراء غرناطة . رسم مخطوط

لقصة حب عجيبة دائماً في حالة استجابة بين الأستاذ وغرناطة المحبوبة التي كانت تستجيب دائماً لهذه الصلة التي تربطه بها .

هو : الجامعة ، مدرسة الدراسات العربية ، مجلة الأندلس ؛

هى : الكرسى الجامعى جارتيا جومث ، درجة الدكتوراه الفخرية .

المتحدث شاهد على هذه العلاقة حب استطاع الأستاذ أن ينشره كتابة وبحثاً علمياً وذلك في جهده التدريسي البديع .

أما ألبارو جالميث دى فوينتس فقد قام بعبور جميل لأعمال جارتيا جومث . وتفرغ هذا الأستاذ لاعادة الحياة للشعر الغنائى الأندلسى وللانتاج الفنى النثرى فى الأندلس . والمحصول الذى خرجنا به من كنوز تراث جارتيا جومث انتهى بتعريفنا بالقيمة العظيمة لما هو أندلسى . وقد أدت هذه المعرفة فيما بعد الى تطور للأدب الاسبانى متأثراً بالانتاج الأدبى الأندلسى والعربى . والحساسية الفنية لهذا الأستاذ بجانب دقته العلمية كانت وراء اهدائنا القيمة الأكثر رفعة لهذا الأدب .

والأستاذة سوليداد خيبيرت من جانبها فى عملية توفيقية شخصية وتعايشية ركزت على القيمة الرفيعة للمجهود التدريسي للأستاذ جومث ؛ وتحدثت عن العطاء اللامع والمشوق لهذا الأستاذ والذى انتهى بترك أثر عميق : عرفان بالجميل ، اعجاب ، عاطفة . هذا الأثر تحول الى قلاع متينة لمدرسة جارتيا جومث الاستشرافية والأدبية .

أما المستشرق الكبير فرناندو دى لاجرانخا فقد قدم تاريخاً علمياً لأستاذة وكيف لمع منذ شبابه وخاصة فى مجال الدراسات الأدبية المقارنة والكشف عن روح شعرية جديدة عبر نشره ودراسته للأشعار الأندلسية التى لم تكن معروفة حتى قام بنشرها وترجمتها . وفى هذا المجال تحدث عن دوره فى الكشف عن شخصية الأدب الأندلسى المتميزة والذى كان يدرس فى المشرق العربى على أنه امتداد للأدب العباسى . كما لم يكن له مكان فى اسبانيا . ولم تكن تلك الترجمة لهذه الأشعار كما يقول لاجرانخا الا الاعلان عن برنامج كامل لحياة فى البحث العلمى فى هذا المجال حيث تعددت ترجماته لهذا الشعر الأندلسى وتوجه بترجمته البديعة طوق الحمامة ثم تجاوز الأمر من التعريف بالشعر الأندلسى الى التعريف بالشعر العربى فى كتابه ( خمسة شعراء مسلمين ) وهكذا عرفت اسبانيا المتنبى وعدة من الشعراء العرب . وخلال ذلك العمل العلمى كان أستاذنا لاعملاً يجذب التلاميذ ويفتح آفاقاً جديدة لباحثين جدد .



ومنذ كتابه المنشور ١٩٢٩ « نص عربى أندلسى للمحمة الاسكندر » حتى تحقيقه لديوان ابن قزمان حظيت غرناطة بأكبر جهد وحب منه وأيضاً بعدد من الكتب منها « بؤرة ضوء قديم حول الحمراء » و « قصائد على جدران ونوافير الحمراء » وهكذا وصل جارشيا جومث الى قمة الاستعراب وملاً الدنيا اعجاباً وترك خلفه عدداً كبيراً من الكتب والأبحاث العلمية والتلاميذ اللامعين وأكثر من ذلك عالماً من الحب والوفاء .

رافائيل لابيذا ميلجار تحدث عن علاقته بجارشيا جومث التى لم ينفصل فيها عنه الا فى آخر ثلاث سنوات بسبب الشيخوخة التى وصل اليها الرجلان وكلاهما عضو من جيل ١٩٢٧ الذى يضم رجالاً من أمثال ( خيراردو ديجو ) و ( فيديركو جارشيا لوركا ) و ( رافائيل البيرتى ) و ( لويس سيرنودا ) و ( مانويل التولاغيرى ) هذا الجيل ضم أساتذة أيضاً فى فقه اللغة مثل ( أمادو ألونسو ) و ( داماسو ألونسو ) .

تحدث لابيذا عن انتمائه الى هذا الجيل ثم انتمائه الى جيل ١٩٣٦ . ثم عندما سافر شيخ المؤرخين الاسبان أميريكو كاسترو استبدلته جامعة مدريد بمحاضر شاب أثار دهشة الجميع لأنه مستعرب وليس متخصصاً فى تاريخ اللغة الاسبانية - المادة التى كان يدرسها كاسترو - هذا المحاضر حديث الحصول على الدكتوراه التى أصلت علاقة ابن طفيل وتأثيره فى الفلسفة التعليمية الاسبانية كان بارعاً فى الكشف عن جذور الكلمات والتعبيرات الاسبانية التى من أصل عربى التى ظهرت فى المستندات اللاتينية فى العصر الوسيط لشبه الجزيرة الايبيرية . ثم انتقل المتحدث الى الحديث عن ترجمته للأشعار الاندلسية وتأثيرها الفائق فى الشعراء الاسبان الذين اكتشفوا الأدب العربى المجهول والذى كان مختبئاً فى ركن قصى من العالَم بصوره الدقيقة الرقيقة . وينهى المتحدث حديثه الطويل عن أعمال جارشيا جومث بالحديث عن عشقه لغرناطة الذى يظهر فى كتابه « مقعد المسلم » وذلك عندما اهدى هذا الكتاب الى غرناطة بهذه العبارات :

الى غرناطة

غرناطتى والى الأبد

المدينة التى أحببتها أكثر

والتي فيها أرغب فى انتظار نفخة الصور

وفى كلمة أندريس مارتينث لوركا تحدث هذا الفيلسوف بلغة شعرية تعطى بعداً جمالياً للفلسفة . وقد بدأ هذا الحديث المقسم الى أقسام بعنوان « البذرة الخالدة للكتابة » وتحت هذا العنوان تحدث عن الأسطورة المصرية للاله توت الذى قدم الى

أمون ما اكتشفه من أرقام وحساب وهندسة وفلك وكتابة لكى يوزعها على الشعب ويقول توت هذه المعرفة ستجعل المصريين أكثر الناس حكمة وذاكرة ، أن الكتابة قد اخترعت كدواء للذاكرة وللحكمة . وهكذا كانت ترجمة جارتيا جومث لطوق الحمامة لابن حزم قد جعلت مؤلفها صاحباً لا ينفصل لآلاف القراء بينما كان في حياته مطارداً ومنفياً ولم تكن كتابته تعبر عتبة بابيه كما يحكى ابن حيان عن سنوات ابن حزم الأخيرة . ان العبقريّة الشعريّة والاستاذية اللغوية لجارتيا جومث قد أعطيا حياة جديدة الى كتابة قديمة محوّلها الى بذرة خالدة .

ثم بعد ذلك يأتى عنوان جديد عن أستاذه أسين بالاثيوس التى أسفرت عن انشاء مجلة الاندلس عام ١٩٣٣ بادارتهما والتى انتهت بأن أدارها جومث وحده بموت أستاذه عام ١٩٤٤ ثم يأتى عنوان ثالث عن صداقته مع أورتيجا اى جاسيت فيلسوف اسبانيا الأكبر وقد أخلص جارتيا جومث لهذه الصداقة وظل يقدم أعمدتها العشرة الى تلاميذه :

العمل ، تنقيه التراث ، الوضوح ، التسامح ، الاعتزاز بالنفس ، الكمال ، التعايش ( الانفتاح على الآخر ) ، الايثار ، المثالية .

ثم يأتى العنوان الرابع دون اميليو جارتيا جومث كمتقف وكاتب وفيها يعرض أسلوب جارتيا جومث الشاعرى والذى لا يفارق العلمية البحتة فى نفس الوقت ، وكيف أن هذا الرجل قد غرس روحه الاندلسية فى شعراء عظام عرفهم وعرفوه مثل جارتيا لوركا ورافائيل البيرتى وبيثنتى اليساندري .

ان كتابة جارتيا جومث النثرية شعر محض فهو يصف جنة العريف بأنها بساط فارسي مفروش على بستان زيتون رمادى .

والعنوان الأخير الأندلس وعشق دائم وفيه يحدثنا عن عشقه شخصياً للأندلس بعد أن عرفها عبر جومث الذى تواصل مع شعبها بعد أن حولها الى كتابة جميلة . وينهى حديثه بأشعار تتحدث عن خلود كلمات جومث فى الروح الاسبانية .

أما كلمة بيدرو مارتينث منتابث فقد تحدثت عن جارتيا جومث كأستاذ جامعى فقد استهل كلمته بالحديث عن أن الذاكرة بالنسبة له صديق دائم وأن الأستاذية الاستثنائية لجارتيا جومث ما زالت شيئاً بالنسبة له غير قابل للمناقشة أو الغياب عن الذاكرة .

ثم أضاف عن دوره فى جعل الاستعراب ليس فحسب بحثاً علمياً عميقاً وانما عمل خلاق كما أضاف اليه الأدب والفكر العربى الحديث . كما أن رؤيته لمصر ولكل ما هو مصرى ومشاعره نحو ذلك بدت للمتحدث جذابة كما أن التجربة الشخصية للمتحدث بعد ذلك جعلته يدرك معنى ذلك أكثر .

ثم انتقل المتحدث بلغته العاطفية والتى لا تغادر الموضوعية رغم ذلك الى الحديث أن جارتيا جومث كأستاذ جامعى غير معروف الا فى أقل القليل ودوره

الأستاذى فى الجامعة قليل التعريف به وذلك بسبب اتساع جهوده العلمية ومواهبه ككاتب التى غطت على أستاذ أصيل وكأن الأستاذية وراثية فى دمه . وقد كان كأستاذ يتمتع بسلطة وليس بتسلط .

ثم أضاف المتحدث أنه قد عرف جارتيا جومث فى الجامعة فى ظروف لم تكن فيها الجامعة المؤسسة التى يحلم بها وليس ذلك بسبب النظام الذى كان سائدا فحسب ويقصد نظام فرانكو الذى أعطى صورته لكل المؤسسات وانما لأن الجامعة التى يحلم بها لم تتحقق بعد وطبقا لاتجاهات الرياح فانها لن تتحقق أبدا .

قد عرف فى تلك الجامعة شخصيات منها أستاذه جارتيا جومث والذى كان أستاذا بكل الصدارة وفى الصدارة وبمنهجية لا يغادرها أبدا ومع ذلك فقد كان تدريسه بهذه المنهجية الصارمة مقبولا ومحبوبا . وكأستاذ لم يكن همه اصطياذ التلامذة بل كان يجذبهم بدروسه ويكتشف فيهم نبوغهم ثم يرعاهم بعلمه ويفتنهم بدروسه التى كان رغم تلقائيتها فى المنهجية الفيلولوجية يفضل عليها النص الأدبى والذى برع فى تحليله وتقديمه .

وختم كلمته بنص شعرى لقصيدة لأدونيس تتحدث عن بيت وحيد فى السماء والأرض هنا بين البحر المتوسط وجبل غرناطة المغطى بالثلج الذى يصافح الأمواج ؛ انه بيت جارتيا جومث .

ثم يتحدث عن المكان النهائى الذى يسكنه الآن دون اميليو فى الأرض التى أحبها تلك المدينة النادرة التى كانت بالنسبة له بوابة العالم : غرناطة .

وفى مداخلة محمود على مكى عميد الأندلسيات فى العالم العربى ومن أول جيل لتلاميذ جارتيا جومث المصريين يقص أثر حيوية الانشغال بالدراسات الاسبانية العربية وجذورها التراثية ويقصد بذلك الدراسات الاسبانية عند العرب والعربية عند الاسبان . وذلك منذ جيانجس الى كوديرا ، ومن كوديرا الى خوليان ريبيرا وبالاتيوس . ومن ثم فى هذه السلسلة من التواصل يأتى جارتيا جومث . دون اميليو بحسه العبقري لم يترجم فقط الشعر الى كلمات اسبانية ولكن الى ميزان شعري اسباني ولعله فعل نفس الشيء فى كل ما يتعلق بمناسخ الحضارة الاندلسية . تنتسب نهضة الدراسات الاستعرابية فى اسبانيا الى هذا الرجل الذى شكل مدرسة حملت فى تسارع الثقافة الاندلسية والعربية الى الوجود فى اسبانيا . وبالتوازي مع ذلك يقص الدكتور مكى أثر الدراسات الاندلسية والاسبانية فى مصر . نقطة الانطلاق : الحوارات بين اميليو جارتيا جومث وعميد الأدب العربى طه حسين والتى تنتهى بخلق المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمديرد . وقد شكل طه حسين هذا الأعمى البصير جيلا من المتخصصين فى الاسبانيات . وهذا النموذج المصرى تم نسخه فى كل البلاد العربية . وقد كان هذا الجيل المصرى

أول مجموعة من الباحثين المصريين الذين استقبلهم المعهد المصرى للدراسات الاسلامية وأشرف عليهم علميا فى اسبانيا جارثيا جومث .

ومداخلة السفير ألفونسو دى لاسيرنا تتذكر بعض الكلمات التى قالها جارثيا جومث حول الأساتذة الكبار للاستعراب الاسبانى : « جاينجس كان الحقل المناسب ؛ كوديرا ، كان الجذر المغزى ؛ وريبيرا كان ساق الشجرة الدقيق التكوين ؛ وأسسين بالاثيوس كان الزهرة والثمرة » . ويضيف ألفونسو : ان جارثيا جومث ابن وصغير وحفيد الحفيد لهؤلاء الحكماء ان جارثيا جومث بهذا المعنى فى رأى المتحدث هو البذرة التى انطلقت فى أرض خصبة من تلك الشجرة . وقد نجمت عن هذه البذرة أشجار كثيرة تمتد فى نسبها الى تلك الشجرة البطريقية العظيمة .

وفرناندو بالديراما بعد اشارته الى مجموعة من الطرائف حول حياة الأستاذ جومث فى اللحظة التى عرف فيها دون اميليو فى مراكش وفى لقاءات أخرى بهذا البلد أو فى غرناطة أو مدريد ، يضيف المتحدث باضاعة مجموعة من الفقرات من كتابات جارثيا جومث لاستحضاره فى هذا التكريم وتتعلق هذه الفقرات باعتزاز أسسين بالاثيوس واحالته للمعاش ثم عن رحيل جونثاليث بالنتيا وأخيرا عن رحيل أسسين بالاثيوس نفسه . وفى هذه الفقرات يكشف عن انسانية جومث وعاطفيته وقدرته على نقل هذه المشاعر الى الكتابة . وهو دائما قريب من أساتذته وأصدقائه ملئ بالعرفان لهم .

فرناندو بالديراما يقدم بعد ذلك تقريراً زمنياً لحياة الأستاذ جومث منذ الأربعينيات ومستخرجة فى بعضها من بعض أعمال السيرة الذاتية لجومث نفسه . على سبيل المثال :

- ١ - عضو فى الأكاديمية الملكية الاسبانية للتاريخ ١٩٤٢ .
- ٢ - عضو فى الأكاديمية الملكية الاسبانية للغة ١٩٤٥ .
- ٣ - دكتوراه فخرية من جامعة بورديوس ١٩٥٠ .
- ٤ - زيارة لمصر كممنوح ودارس بجانب زيارات متعددة كممثل للحكومة الاسبانية وملحق ثقافى بكثير من البلاد العربية عبر الأربعينيات والخمسينيات . وتستمر هذه السيرة لحياة جارثيا جومث حتى تعيينه رئيساً للأكاديمية الملكية الاسبانية للتاريخ عام ١٩٩٢ .

وتناقش مداخلة خواكين بالبيه أعمال جارثيا جومث بأسلوب علمى ونقدى دون أن يترك ذلك النزعة العاطفية التى تربطه بأستاذه والتى جعلته أيضا يتحدث عن عواطف هذا الأستاذ تجاه الاندلس وحضارتها وتجاه مصر والمصريين

أيضا تجاه المعهد المصرى للدراسات الاسلامية . وتتمثل هذه العاطفة تجاه المعهد فى اصدار كتابين عزيزين عليه لأنهما حول عشقه لغرناطة فى هذا المعهد . هذان الكتابان هما « بؤرة نور قديم على قصر الحمراء » و « قصائد وأشعار على جدران ونوافير الحمراء » . وفيما وراء العلمى والاشكالى الذى تثيره أعمال هذا الأستاذ العظيم يظهر جمال فنى أدبى بشكل واضح لا يقبل الانكار ..

ويلتقط الأستاذ باليه بعض هذه الكلمات لأسين بالاثيوس التى توجهت الى جارثيا جومث : « يمتلك تلك الأستاذية اللامعة والموحية ، وبالنسبة لما وهب كعلامة وكمحلل فيلولوجى قد جمعت العناية الالهية فى روحه القدرات الاستثنائية العلمية مختلطة بقدرات الشعر » .

الأستاذ باليه يفتح فى كلمته فضاء لعلاقته بدون اميليو الذى تلقى على يديه أول درس فى اللغة العربية ومنذ تلك اللحظة كسب الأستاذ إعجابه وعاطفته . وأنهى حديثه بامتداح فضيلتى الصداقة والولاء فى شخص هذا الأستاذ الغنى بالقيم .

والأستاذ الجليل خوان بيرنيت يتحدث فى اخلاص بديع عن دور جارثيا جومث فى فتح الأبواب أمام فهم اللغة العربية من ناحية وشعرها من ناحية أخرى . الأمر الذى كان بالغ الصعوبة فى النصف الاول من هذا القرن ثم يتحدث عن التعاون الوثيق الذى تم بين أساتذة اللغة العربية فى برشلونة ومدريد ويختم كلمته بحديث عن الصداقة التى جمعتها و جارثيا جومث حتى أن الأخير هو الذى القى كلمة الرد على كلمة بيرنيت التى دشن بها تعيينه عضوا فى الأكاديمية الملكية للتاريخ .

الأستاذة ماريا خيسوس بيجيرا فقد تحدثت عن استعارات عربية فى الأدب الاسبانى كانت نتيجة لترجمات جارثيا جومث الجميلة للأشعار الاندلسية تلك الترجمات التى نالت إعجابا شديدا واستوحاها الشعراء الاسبان فالأستاذ جومث يترجم الشعر الى شعر وقد استقبل جيل ١٩٢٧ هذه الترجمات بترحاب شديد . ثم ذكرت بعض تعليقات هذا الجيل . ثم تدخل مباشرة فى موضوعها الذى ذكرت أنها ستدرس الاستعارات ذات الأصل العربى فى أشعار الشاعر ( رامون جومث دى لاسيرنا ) وقد بدأ جارثيا جومث نفسه فى اكتشاف وجود الاستعارات فى شعر هذا الشاعر والمأخوذة بشكل مباشر من ترجمات جارثيا جومث للشعر الأندلسى دون اشارة الى ذلك . والحقيقة أن هذه الاستعارات أوسع مما اكتشفه جارثيا جومث فى البداية . ان هذا الشاعر الذى أنشأ نوعا أدبيا جديدا فى الشعر الغنائى وأطلق عليه ( جريجيريا ) وهى كلمة تحمل تورية تشير الى الحياة اليومية والى اللغة العربية فى نفس الوقت مما يؤكد تصور استيحاء هذا الشاعر فى تلك القصائد للشعر العربى الاندلسى من ناحية والحياة اليومية الاسبانية من ناحية

أخرى بل لعله ربط بينهما ، ( هذه الفكرة لم ترد في حديث الأستاذة ماريا خيسوس وهى من تصور المحرر ) وتنهى الأستاذة الدكتورة حديثها بدراسة ممتازة وبديعة لعدد من الاستعارات التى توردها تحت ميكروسكوب التحليل مشيرة الى القيمة الفنية الخالدة فى الاشعار الاندلسية والتى ما زالت استعاراتها محفوظة ومقيمة ومتذوقة ومستوحاة .

والسفير رامون ببيانوييا فقد تحدث عن ذكرياته كدبلوماسى شاب فى صحبة جارتيا جومث فى سفارته الأولى لاسبانيا فى العالم العربى فقد عين سفيراً فى العراق وقد وصل فى يوم قيام ثورة العراق التى قادها عبد الكريم قاسم والتى اسقطت النظام الملكى واقامت الجمهورية ويكشف السفير عن صلابه جارتيا جومث فى هذا الموقف العصيب وعن كثير من الأسرار الدبلوماسية حول موقف اسبانيا فى ذلك الوقت من ثورة العراق وأيضا من ثورة عبد الناصر فى القاهرة والسفير يتحدث كشاهد عيان وما كشفه من أسرار على مسئوليته الشخصية لأن مثل هذه المسائل تحتاج للتوثيق التاريخى .

وتتضمن مداخلة اميليو دى سانتياجو حشدا بديعا من الاحاسيس الشاعرية نحو أستاذة وما يمثله هذا الاستاذ من قيم وتخصص .  
اميليو دى سانتياجو سيمون الذى يشغل الآن الكرسي الجامعى الذى يحمل اسم اميليو جارتيا جومث فى جامعة غرناطة يتحدث عن نموذج سحرى لرجل جعله فى طفولته لا يريد شيئا فى الوجود غير أن يصير جارتيا جومث آخر . وبالتصاق جارتيا جومث بأسرة اميليو دى سانتياجو فى غرناطة تلك المدينة التى يجمعهما الانتماء اليها والتى هى بالنسبة لجارتيا جومث تلك المدينة التى استدعتها موسيقى فايا وشعر لوركا الى خياله . وكان جارتيا جومث بالفعل جزءا من هذه المدينة متغمسا فى الموسيقى والشعر اللذين كانا غرناطة بالنسبة له . ويتقدم الزمن يصل الى الاعتراف : « جارتيا جومث ، بالنسبة لى ، عبر تلك الصداقة بين التلميذ وأستاذة والتى تعنى قراءة التلميذ لكتب أستاذة ، وهكذا كنت فى اقتراب مستمر من كائن ملء بالحيوية والحياة ، ومن شخص كان ينبض داخل الشعر » .

كان جومث شاعر وعلامة . فنان غرناطة مثيرة للخيال ، يحرر من سجنها أوراقا حجرية وجصية ١

اميليو جارتيا جومث كان يسمع صوت تلك المدينة الاكثر حميمية وكان يستخرجه من سجنها فى غنائية محلولة الشعر لكنها شفافة .

١ ربما يشير اميليو دى سانتياجو الى جدران الحمراء الهشة والخالدة فى نفس الوقت كأنها أوراق حجرية وجصية .

ودون بدرو لايين انترالغو تحدث حديثا طويلا ومفيدا عن جيل ١٩٢٧ الذى ينتمى اليه جارتيا جومث وعدد من العمالقة الذين تلقوا دعوة فيلسوف اسبانيا «أورتيجا اى جاسيت» بالعمل كل فى حقله « علم - فن - أدب - انسانيات .. الخ » فى بهجة للكشف عن ثقافة اسبانيا الغنية ولبناء مستقبل أفضل لوطنهم . وقد انطلق جارتيا جومث فى مجال التراث العربى والاسلامى فى سلم جامعى وأكاديمى بدأ فى غرناطة وامتد عدة عقود مليئة بالخلق والابداع الذى صاحب بشكل غير عادى بحوثه العلمية شديدة التدقيق .

سليمان العطار

